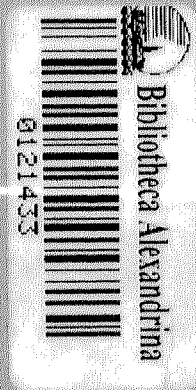


مركز وثائق وأبحاث عصر المعاصر

مصر  
النهضة

# عصر حكيان

د. أحمد عبد الرهيم مطفي



96







مركز وثائق وأبحاث اللغة العربية المعاصرة

إشراف: د. يونان لبيب رزق  
مكتبة التحرير: خلف عبد العظيم الميرحي

الإخراج الفني : مراد نسيم

# عصر حكيان

د. د. أحمد محمد الرحيم و طيفي



الموسسة القومية للمكتبات والارشيف

١٩٩٠



## تقديم

هذه موضوعات أربعة كتبها الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى في مناسبات مختلفة .

وما تقوم به « مصر النهضة » من جمع هذه الموضوعات ونشرها في أحد أعدادها له أسبابه .

فالأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى أستاذ جيل من المؤرخين وكل ما يكتبه ينبغي الحفاظ عليه وتوفيره لجموع الباحثين ، فهذا حقه كما أنه بنفس القدر حق أبناء الأجيال الجديدة من الراغبين في متابعة ما كتبه .

ثم ان الموضوعات الأربعة التي تنشرها مصر النهضة في هذا العدد تجمع بينها وحدة موضوعية اذ انها تعالج في

غالبها تلك الفترة الغامضة من تاريخ مصر بين نهاية عصر محمد علي وبدايات عصر اسماعيل .

أضف الى ذلك أننا كنا حريصين في مصر النهضة على اقتناء ونشر عينات من تلك المجموعة الثمينة من أوراق حككيان التي تفضل الدكتور أحمد عبد الرحيم فمنحها لهذا العدد لنشرها كملحق له لتكون عوناً للباحثين في تلك الفترة .

ولأهمية هذه الأوراق من جانب ، ولأن الموضوعات التي تضمنها هذا العدد يجمع بينها أنها وقعت كلها في عصر حككيان . فقد رأينا أن نطلق على مجموعة هذه البحوث « عصر حككيان » .

والأمل معقود على أن تكون هذه المجموعة من الموضوعات مصدر فائدة للباحثين في تاريخ مصر الحديث .

وعلى الله قصد السبيل

مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر



## الموضوع الأول

---

جوانب من علاقات مصر الخارجية  
فى عهد عباس الأول



بعد هزيمة القوات العثمانية على يد قوات محمد علي في موقعة نزيب في يونية ١٨٣٩ (١) أصبحت الامبراطورية العثمانية في مهب الرياح • ورغبة من ساسة الدولة في كسب مساندة الدول العظمى الى جانبها فافهم أعلنوا برنامج الاصلاحات الذي تضمنه خط شريف جلخانة وعرف في مجموعة باسم التنظيمات الخيرية لأنها استهدفت (تنظيم) شؤون الدولة وفق أسس جديدة في جميع المجالات الادارية والمالية والقضائية والتعليمية • وقد أكدت التنظيمات على نقاط ثلاث هي :

- ١ - توفير الضمانات لأمن جميع رعايا الدولة على حياتهم وشرفهم وأموالهم مما يستدعي علانية المحاكمات ومطابقتها للوائح والغاء اجراءات مصادرة الأملاك •
- ٢ - ايجاد نظام ثابت للضرائب يحل محل الالتزام •

---

(١) استقيت معظم المادة الواردة في هذا البحث من وثائق وزارة الخارجية البريطانية .

٣ - توفير نظام ثابت للمجنديّة بحيث لا تظل مدى الحياة بل تحدّد مدتها بفترة تتراوح بين أربع وخمس سنوات .

وبالإضافة الى ذلك فقد أكد الخط الشريف للمرة الأولى وبصفة رسمية المساواة بين جميع رعايا السلطان أمام القانون .

وبعد صدور خط شريف جليخانه وقفت بريطانيا الى جانب الدولة العثمانية رغبة منها في تدمير الامبراطورية المصرية وما تضمنته من أخطار على المواصلات البريطانية صوب الهند . لهذا سعت الى تشكيل تآلب دولي أمكنه الحاق الهزيمة بمحمد علي وارغامه على الانسحاب من كل أملاكه باستثناء مصر والسودان ، ثم تحدّد وضع مصر الدولي بمقتضى معاهدة لندن الموقعة في أول يونيه ١٨٤٠ والخط الشريف الموجه الى محمد علي والصادر في ١٣ فبراير ١٨٤١ والفرمان الصادر في أول يونيه ١٨٤١ . وقد حددت هذه الاتفاقيات والمراسيم وضع مصر القانوني الذي ظل ساريا الى أن تنازلت تركيا عن سيادتها على مصر بمقتضى معاهدة لوزان الموقعة في عام ١٩٢٣ .

ولقد نصّ الفرمان الصادر في أول يونيه ١٨٤١ على حق محمد علي وأبنائه في حكم مصر ورأيسا وتمتعهم بسلطات تفوق سلطات الولاة العثمانيين الآخرين ، كما نص على كون والي مصر من رعايا السلطان وأفضاله وعلى أن جيش مصر جزء

لا يتجزأ من الجيش العثماني وحدد عدد قواته بما لا يزيد على ١٨٠٠٠٠ مقاتل في أوقات السلم وعلى أن يرسل الوالى سنويا ارسالية مالية الى استانبول وأن تطبق القوانين والمعاهدات العثمانية على مصر باعتبارها جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية العثمانية وعلى أن يقلد كل والى منصبه وخلعه شخصيا فى العاصمة العثمانية وأن تسك نقود مصر وتجبى ضرائبها باسم السلطان . على أن استقلال مصر الذاتى رغم كل ذلك كان كاملا بحيث مارس الولاة سلطة تامة على المصريين فى شئون الادارة والضرائب والدفاع والتشريع . وعلى أى حال فإن تسوية عام ١٨٤٠ - ١٨٤١ التى حددت وضع مصر الدولى بهذا الشكل قد توصلت الى حل وسط ارضى رغبات جميع الأطراف . فالباب العالى لم يعترض على حق الوراثة طالما بقيت مصر فى نطاق الامبراطورية العثمانية وفرضت حدود على سلطة واليها ، أما الدول العظمى التى ضمننت سريان التسوية فإنها حافظت على تمامية املاك السلطان دون أن توصل الباب أمام التغلغل الاقتصادى الأوروبى ، كما أصبحت بمثابة حكم بين مصر والدولة العثمانية وبالتالي اكتسبت حق التدخل فى شئون كلا الطرفين ولو أنها لم تحل دون تطلع كل الأطراف الى اكتساب مزيد من المزايا : فحق الحكم الوراثةى كان بشجع ولاة مصر على التطلع الى الاستقلال التام فى الوقت الذى سعى فيه الباب

العالي الى تقليص الامتيازات التي حصلت عليها مصر متى  
ما سنحت الفرصة •

وبعد هزيمة مصر في أوائل الأربعينات انتقلت بالتدريج من  
حيز القوة الى حيز الضعف ومن الاستقلال الواقعي الى  
الخضوع لاستانبول •

وقد أحس محمد على بهذا التغيير فاهتم بمقاومة اتجاه كل  
من بريطانيا وفرنسا للتدخل في شئون البلاد - ولما كان يخشى  
الاحتلال البريطاني باستمرار فقد تعاون مع الحكومة الفرنسية  
في تحصين سواحل مصر الواقعة على البحر المتوسط ، كما  
زاد أعداد جيشه فوق الحد الذي سمحت به التسوية وذلك  
حتى لا تحاول الدولة العثمانية الغاء الامتيازات التي حصلت  
عليها مصر • ولكي يؤكد استقلاله الذاتي فانه استولى على  
المواصلات البرية والنيلية التابعة للبريطانيين ووضعها تحت  
الادارة المصرية • وحين عرض عليه مشروع قناة السويس تردد  
في تنفيذه خوفا من اغصاب بريطانيا وأصر على أن يكون المشروع  
مصريا بحيث يكون رأس المال محليا ويكون الفنيون في خدمة  
الحكومة المصرية ، كما تحدث عن حياد مصر باعتباره شرطا  
أساسيا لتنفيذ المشروع الذي أشار الى كونه ذا أهمية بالنسبة  
الى أوروبا بوجه عام • وقد علمته تجاربه الطويلة أن لا جدوى  
من الاعتماد على فرنسا أو على أى دولة أوروبية عظمى أخرى

وأن مقاومة النفوذ العثماني أسهل كثيرا من مقاومة نفوذ  
انجلترا وفرنسا وبالتالي فقد عدل موقفه من استانبول وحسن  
علاقاته بالسلطات العثمانية باعتبار ذلك وسيلة لمقاومة الضغط  
العربي \*

وبعد ان اختلط عقل محمد علي تولى ابنه ابراهيم الحكم ،  
وحين توفي تولى عباس الأول حفيد محمد علي الذي اتصف  
بالتسوة والتعصب ، خاصة وأنه كان الوحيد من أبناء محمد علي  
وأحفاده الذي لم يتلق تعليما عصريا ولم يدرس أى لغة أوروبية  
أو يقوم بزيارة أوروبا ، وبالتالي فإنه لم يتذوق الحضارة  
الغربية ولم يبد أى احترام لأساليب حياة الأوروبيين ، واتجه  
الى القضاء على كل مظاهر النفوذ الاوروي وتوثيق علاقات مصر  
بالباب العالي خاصة وأنه كان يسمت تسامح جده مع  
الأوروبيين \* ونتيجة لكل ذلك فقد عادت العلاقات بين مصر  
والدولة العثمانية الى ما كانت عليه قبل موقعة نافارينو  
( ١٨٢٧ ) ، خاصة وأن عباس كان يرى أن مصر ليست سوى  
ولاية صغيرة تابعة للدولة العثمانية وليست امبراطورية كما كان  
الحال فى عهد جده وبالتالي فإنه آمن بضرورة تمشي مؤسساتها  
ونظمتها مع مساحتها ودخلها (٢) مما يفسر كثيرا من الاجراءات

---

(٢) وثائق وزارة الخارجية البريطانية - الملف ٨٤٢/٧٨ نسخة من رسالة  
دكتور بروبر طبيب عباس الى مسنر ابرنون بتاريخ ٩ يناير ١٨٥١ .

التي اتخذها مثل بيع الأسطول وتسريح الجيش واغلاق  
المصانع وتقليص التعليم - الى غير ذلك .

وفي ديسمبر ١٨٤٨ بارح عباس مصر الى استانبول لكي  
يتسلم فرمان توليته ويحضر في الباب العالي الاحتفال الخاص  
بتنصيبه واليا . ورغم أن السلطان عبد المجيد استقبله استقبالا  
حسنا وأغدق عليه امارات التشريف فقد كان الباب العالي  
اميل الى تقليص صلاحيات الاستقلال التي تمتع بها محمد علي  
وأبدى استعدادة للاشراف المباشر على شئون مصر (٣) .  
وبعد عودة عباس الى مصر طلب منه أن يرسل ٢٠٠٠٠ رجل لكي  
يعملوا في الأسطول العثماني مما أدى الى توقف العمل في  
القناطر الخيرية والشك في استكمال المشروع (٤) .

وقد شجع الموقف الداخلي في مصر الباب العالي على  
التدخل في شئونها . فرغم أن عباس لم يرتكب في أوائل حكمه  
ظلما أو يسطنع القسوة فقد أثار كراهية الأوروبيين والعرب  
والأتراك خاصة وأن معظم الموظفين لم يكونوا يقبضون مرتباتهم

---

(٣) وثائق وزارة الخارجية البريطانية - الملف ٨٠٤/٧٨ - رقم ١٩ من  
مرى الى بالمرستون بتاريخ ١٩ فبراير ١٨٤٩ .

(٤) نفس الملف ، رقما ٢١ و ٢٤ من مرى الى بالمرستون بتاريخ ١٦  
و ١٩ ابريل ١٨٤٩ . في يونيو ١٨٥٠ زار عباس السلطان في جزيرة رودس  
وحين صاد الى مصر كان شديد السرور لان عبد المجيد استقبله استقبالا  
حسا ( الملف ٨٤٠/٧٨ رقم ١٨ ) من جلبرت الى بالمرستون بتاريخ ١٧/٦/١٨٥٠ .



لأن الخزانة كانت خاوية - وقيل أن عباس استولى على الجزء الأكبر من ثروة محمد على الخاصة وعلى مجوهرات بناته مما دفع أعضاء الأسرة الحاكمة في مصر إلى الشكوى إلى استانبول \* وكان أنصار فرع إبراهيم يأملون في استبدال الحاكم لصالحهم وتعلقت آمالهم بالأمير أحمد أكبر أبناء هذا الفرع الذي كثر الحديث عن مطالبته السابقة بالحكم وعن الأموال الضخمة التي كان بإمكانه الاتفاق منها للحصول على رضى الدول العظمى \* وبالإضافة إلى مصاعب عباس هذه فإن فرنسا كانت تكن له العداة بعد أن ألغى كثيرا من المؤسسات التي كان يشرف عليها فرنسيون - وكانت فرنسا تأمل أن يؤدي تغيير الحاكم إلى خدمة المصالح الفرنسية خاصة وأن الأمير سعيد ابن محمد على والأمير أحمد بن إبراهيم اللذين كان مقيضا لهما أن يخلفا عباس طبقا لنظام وراثة العرش وفقا لقاعدة الأكبر فالأكبر الذي وقعت عليه التسوية قد تلقيا تعليمهما في فرنسا وكان من المتوقع أن ينحازا إلى جانبها (٥) \*

وقد انعكست الصعوبات التي واجهها عباس في النزاع الذي ثار بينه وبين الباب العالي ( ١٨٥٠ - ١٨٥٢ ) حول تطبيق التنظيمات في مصر ، خاصة وأن هذا النزاع والاتهامات

---

(٥) الملف ٧٨/٨٠٤ - المراجعة رقم ٢٨ من مرى إلى بالمستون بتاريخ

٧ مايو ١٨٤٩ .

التي وجهها الباب العالي الى الوالى قد تسببت في اضطراب البلاد • ونتيجة لخوف الوالى من نتائج ذلك فانه اتجه الى بريطانيا لكي تحميه خاصة وأنه كان قد أثار سخط فرنسا بعد أن طرد الفرنسيين من الادارة المصرية وأنه كان شديد الخشية لبريطانيا التي تسببت في هزيمة جده وكان لها أسطول قوى في البحر المتوسط • وقد راقب قنصل بريطانيا العام في مصر - مرى Murray - الموقف العام في البلاد حتى قبل أن يبدأ النزاع بين الوالى والباب العالي وحاول بالتدريج أن يوازن النفوذ الفرنسى الذى كان قويا جدا في عهد محمد على ، وسعى الى انتهاز فرصة مبكرة لكي يبين له - بناء على اقتراح من لورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانية - المزايا التي تعود على مصر من بناء سكة حديدية بين القاهرة والسويس (١) • وقد أبدى مرى انزعاجه بوجه خاص من الجولات التي كان يقوم سليمان باشا الفرنساوى في الدلتا حيث كان يتفقد التحصينات ويمزها وينظم ويدرب القوات التي جرى تجنيدها مؤخرا • وكان مرى يشك في أن فرنسا لازالت تراودها أطماع خاصة بالاستيلاء على مصر خاصة وأن هذه التحصينات كانت قد

(٦) نفس الملف رقم ٣ من مرى الى بالمرستون بتاريخ ١٦ يناير ١٨٤٩ .

راجع أيضا :

Helen Rivlin, The Railway Question in the Ottoman — Egyptian Crisis of 1850 — 52 (Middle East Journal, Autumn, 1961).

بدأ تنفيذها في عهدى محمد على وإبراهيم وأن الخطط الخاصة بها قد وضعت في باريس . وكان مري يعتقد أن الهدف من إقامة هذه التحصينات هو تمكين الوالى اما من مقاومة السلطان أو من قطع المواصلات بين بريطانيا والهند (٧) . وقد أدى جزع مري الى قطعه الاجازة التي كان يقضيها في انجلترا وعودته الى مصر لكي يساند عباس في نزاعه مع الباب العالي خاصة وأنه كان يتمتع لديه بنفوذ أقوى مما كان يتمتع به ممثل أى دولة أوروبية أخرى أو مما يمكنه الحصول عليه لدى أى وال قد يخلفه (٨) .

يضاف الى هذا أن عباس بادر بعد نشوب النزاع بينه وبين الباب العالي الى ابداء حسن نيته ازاء انجلترا والى استنجاهه بها ، ولهذا ذكر لوانن القائم بأعمال القنصلية العامة أنه حين تولى الحكم وجد كل ادارات البلاد في أيدي الفرنسيين وأنه بعد أن قلص نفوذهم عاداه قناصل فرنسا العموميون وغيرهم من الفرنسيين مما استتبع التشنيع عليه والشكوى منه الى استانبول والتحريض على خلعه لكي يحل محله أحد أفراد الأسرة من الموالين لفرنسا . وأبدى عباس اعتماده على مري لكي يحث الحكومة البريطانية على الدفاع عنه واصدار أوامرها الى سفيرها في استانبول - سير ستراتفوردي كاتنج ، سير ستراتفوردي

(٧) ٨٠٤/٧٨ - رسالة من مري الى بالمرستون مؤرخة ١٨٤٩/١٢/١٦ .

(٨) ٨٤١/٧٨ من مري الى بالمرستون بتاريخ ١٨٥٠/١٠/٩ .

دى ردكليف فيما بعد - لكى يسانده فى دوائر القصر السلطانى  
والباب العالى ، مشيرا الى اهتمامه بالمواصلات البريطانية  
صوب الهند وملمحا الى أنه بذل كل ما فى وسعة لتحسين ادارة  
الترانزيت ، واعتذر بالمصاعب المالية عن عدم مبادرته الى تنفيذ  
مشروع السكة الحديد بين الاسكندرية والسويس ووعده بتنفيذه  
متى ما ساعدته الظروف (٩) .

ورغم مساندة مرى لعباس فلم يكن بالمرستون - وزير  
خارجية بريطانيا - يعتقد أن التنظيمات ستضعف سلطة الوالى  
فى مصر (١٠) . ولكن مرى أبدى قلقه حين قرر الباب العالى  
أن يحرم عباس من حق اعدام المجرمين ، وذلك لاعتقاده بأن حق  
الاعدام سيساعد على استقرار الهدوء فى مصر وتأمين البريد  
والبضائع والركاب المتوجهين الى الهند عبر الصحراء خاصة  
وأن مصر لم تكن مجاورة لعاصمة الدولة بحيث يتسنى نقل  
المجرمين والمتظلمين اليها وارسال قوات السلطان بالسرعة  
اللازمة لمساعدة السلطات المدنية اذا ما دعت الضرورة ، وأن مثل  
ما طالب به عباس لم يطبق فى البوسنة وكردستان وأن محاولة

---

(٩) نفس الملف من والى الى مرى بتاريخ ١٨٥٠/٩/٢٠ .  
(١٠) ١٨٤٢/٧٨ - ملحوظة من بالمرستون بتاريخ ١٨٥١/١/٢ على رسالتى  
والن المؤرختين ١٩ ديسمبر ١٨٥٩ .

تطبيقه في حلب ودمشق أدت الى سفك العسكرين لقدر من  
الندماء يفوق ما كان يمكن أن يسفكه الحاكم المحلي في عدة  
سنوات . أما عباس فقد طالب بحق الاعدام لا باعتباره من  
حقوق السيادة ولكن باعتباره سلطة تفويض كان يمارسها  
محمد علي و ابراهيم ويمارسه عباس ذاته حتى ذلك الوقت طبقا  
لقرمان الوراثة ، وذهب الى أن هذا الحق الذي لم يسيء هو  
استخدامه كفيل بالمحافظة على أمن مصر ورخائها ، وأن محاولة  
حرمانه منه كان من نتيجة نفوذ أعدائه في استانبول الذين كان  
يهمهم أن تختل اوضاع مصر بالصورة التي تؤدي الى خلعه ،  
خاصة وأن حق القصاص لم يحرم منه حتى ذلك الوقت حاكم  
الحجاز الذي لم يكن باشا وراثيا ولا يمكن مقارنة حكومته  
بمصر لا من حيث الحيز أو السكان أو الأهمية (١١) .

وفي ١٨ يناير ١٨٥٢ استدعى عباس القناصل العموميين  
الذين كانوا يمثلون الدول الخمس الموقعة على تسوية  
١٨٤٠ - ١٨٤١ وشكا لهم من نوايا الباب العالي واستطرد  
قائلا ان جيوش الدول الأوروبية لا جيوش تركيا هي التي فرضت  
على محمد علي الوضع القائم وأنها لذلك ملزمة أديبا بأن  
تعمل على تطبيق التسوية . ولم يبد ممثلو فرنسا والنمسا وروسيا  
بروسيا تعاطفهم مع عباس الذي اعتبروه منحازا الى مصالح

(١١) ١١٦/٧٨ (رقم ١) من مري الى جرانفل بتاريخ ١٦/١/١٨٥٢ .

بريطانيا التجارية خاصة وقد بدأ في تنفيذ مشروع السكة الحديدية دون أن يستشيرهم \* وصرح له قنصل فرنسا العام بأنه لو استدعى السلك القنصلي قبل بضعة شهور وأبدى ثقته به وطلب النصح والمساعدة من جانب القناصل لربما أدت مساعيهم لدى حكوماتهم الى التأثير في قرارات الباب العالي والى الحيولة دون صدور القرار الأخير \* وكان قد سبق لمرى أن وجه نظر عباس مرارا الى ضرورة تقوية صلاته بالقناصل الآخرين وطلب نصيحهم فيما يتعلق بعلاقاته بالباب العالي ولكن الوالى رفض ذلك بحجة أن قنصلا أو قنصلين كانا على علاقة أوثق بأفراد أسرته الآخرين من علاقتهما به وبأن القناصل حين كانوا يزورونه كانوا يستثيرون غضبه بتناول موضوع واحد دون لباقة أو شفقة وهو عدم ميله الى مجتمعاتهم واتجاهه العام صوب بريطانيا ( ١٣ ) \*

ومهما كان الأمر فقد أحيطت الدول الخمس الموقعة على تسوية ١٨٤٠ - ١٨٤١ بموضوع التنظيمات في نفس الوقت الذى لقي فيه عباس مساندة عناصر معينة في مصر - فقد أرسلت الى مري عريضة وقعها بعض تجار الاسكندرية والقاهرة وبعض المواطنين المهمين الآخرين وتضمنت احتجاجهم على قرارات الباب العالي ورغبتهم في المحافظة على حقوق الوالى وعلى أمن

---

(١٢) نفس الملف - رقم ٢ من مري الى جرانفل بتاريخ ١٨٥٢/١/١٦ \*

البلاد (١٣) • ولكن يعزز معهم عباس مركزه فإنه أطلع مري على رسالة أرسلها إليه لويس نابليون - رئيس الجمهورية الفرنسية - وأبدى فيها استعداداه لمساندة الوالى فى استانبول فيما لو أعاد وضع فرنسا الى ما كان عليه قبل تولي عباس الحكم حين كانت كل المناصب الهامة فى أيدي فرانسيسين وحين كانت شئون مصر تدار من باريس (١٤) • وكتب مري الى كاتنج مدافعا عن عباس وذاهبا الى أن المشكلة كلها لا تعدو كونها سوء تفاهم تسبب فيه أعداء عباس فى استانبول وأن مصالحي بريطانيا تكمن فى مساندة (١٥) •

وفى استانبول انضم سفيرا روسيا والنمسا الى كاتنج وقام الجميع بمساندة عباس ولو أن السفير الفرنسى كان على عكس ذلك (١٦) فحاول أن يظهر الوالى بمظهر المتمرذ على سيده مستهدفا بذلك خلفه خاصة وأن فرنسا كانت تستند فى مصر الى « الحزب الفرنسى » أى امراء الأسرة الحاكمة المعروفين باسم « أبناء فرنسا » ومن التفوا حولهم • وكان كل أوائلك يشدون أزر الأتراك الساخطين الذين سبق أن فصلوا من خدمة

---

(١٣) نفس الملف - نسخة رقم ٤ بتاريخ ١/٢٤/١٨٥٢ •

(١٤) نفس الملف - رقم ٥ من مري الى جرانفل بتاريخ ١٩/٢٥/١٨٥٢ •

(١٥) نفس الملف - نسخة رقم ٥ من مري الى كاتنج بتاريخ ٦/٢/١٨٥٢ •

(١٦) نفسه - رقم ٨ من مري الى جرانفل بتاريخ ٢/٤/١٨٥٢ •

الحكومة (١٧) • وقد أكد عباس لمرى أن سعيد باشا ابن محمد على وولى العهد قد وقع خطابا التزم فيه ، في حالة تولبه العرش ، بقبول التنظيمات في مجموعها وبالتنازل عن حق القصاص وبتطاعة الباب العالي في كل الأمور • ورغم أن مرى كان يشك في صحة هذا الخطاب الا أنه كان يرى أن نجاح المؤامرة الهادفة الى تولية سعيد سيؤدى الى انهيار مصر نتيجة لمطالب الباب العالي واسراف سعيد أو سيستتبع وقوعها تحت الحماية الفرنسية المباشرة مما يلحق بالمصالح البريطانية أهدح الأضرار (١٨) • وحين طلب عباس زيارة سفيتين بريطانيتين الى الاسكندرية نصح مرى ووزارة الخارجية البريطانية بتلبية طلبه حتى لا تتعرض البلاد لانقلاب سياسى خاصة وأن نوبار - سكرتير الوالى وترجمانه - بعث برسالة الى مرى ذهب فيها الى أن رشيد باشا ( الصدر الأعظم ) قد وعد سفير فرنسا فى استانبول بخلع عباس فى حالة مساندة الحكومة الفرنسية له (١٩) ( أى الصدر الأعظم ) ( ٢٠ ) •

(١٧) ٩١٦/٨٨ - رقم ٢٥ ، ١٠ الى مالسورى بتاريخ ١٨٥٢/٦/٢ •

(١٨) نفس الملف - مسودة نسخة رقم ٦ من مرى لكاتنج بتاريخه

• ١٨٥٢/٣/٢٧

(١٩) نفس الوثيقة السابقة .

(٢٠) نفس الملف - نسخة ( بالفرنسية ) من رسالة من نوبار الى مرى

• بتاريخه ١٨٥٢/٣/٢٦



وعلى أى حال فقد ساندت بريطانيا عباس في العواصم الأوروبية الكبرى في الوقت الذي أرسل فيه الباب العالي فؤاد أفندي الى مصر ، وكان الهدف السرى من بعثة فؤاد هو اكتشاف القوة النسبية للأحزاب في مصر واذا ما وجد حجة لخلع عباس عليه أن يستوثق مسا اذا كان من العملى فرض الطاعة لفرمان يتضمن تولية سعيد رئيس الحزب الفرنسى أو حزب الأسرة الحاكمة ، على أن يقوم في حالة ادراكه أن نجح مثل هذه المحاولة أمر غير محتمل بالعودة الى استانبول بعد أن يؤكد لعباس دلائل الصداقة والتقدير (٢١) .

ووصل فؤاد الى مصر في أوائل ابريل ١٨٥٢ ، وحين أبدي المبعوث التركى قدرا من التعقل هدأت كل مخاوف عباس الذى أبدي أنه لن يعترض على حقوق سيده وأنه لا يفكر فى الاستقلال أو فى تحدى الباب العالي — ومما يدل على ذلك أنه قدم للخزانة التركية مبلغ ثلاثة مليون جنيه تركى لم يخصمها من الخراج (الويركو) المستحق على مصر بل انه دفع قيمة خراج عام ١٨٥٢ الى بنك سيناقى فينا باعتبارها ضمانا للقرض الذى تعاقد عليه مع بنك الحكومة فى استانبول ، وكل ذلك مما ينمى رغبة الوالى فى اعلان استقلاله (٢٢) . والى كل ذلك وافق

---

(٢١) نفس الملف .. رقم ١٠ من مرى الر. مالسبورى بتاريخ

٣٠ مارس ١٨٥٢ .

(٢٢) نفس الملف — رسالة من دورول الى مالسبورى بتاريخ ١٤/٤/١٨٥٢

فؤاد على أن يمنح عباس حق الحياة والموت لمدة ست سنوات فيما اذا كان القتل لم يترك وريثا . وقد طالب عباس بثمانى سنوات بدلا من ست ، وأمكن فى النهاية التوصل الى حل وسط فسمح لعباس بسبع سنوات بعد أن وعد بأن يرسل لاستانبول كل حيثيات القصص (٣٣) . وبعد التوصل الى حل لمشكلة القصص انتقل فؤاد - الذى كلف بالتوسط بين أفراد الأسرة الحاكمة وبين عباس (٣٤) - الى مسألة ميراث محمد على . وكانت هذه المسألة حساسة وغامضة بحكم أن الأسرة كانت تطالب بكل مصر التى لم يبق أمامها سوى الافلاس (٣٥) .

على أن هذه المسألة الأخيرة كانت ثانوية اذا ما قورنت بمسألة التنظيمات التى اتفق حولها الرأى برغم ما اتضح من فحوى المراسلات من أن بعض الوزراء لم يتوخوا العناية فى دراسة مسألتى التنظيمات والقصص من حيث تطبيقهما فى مصر بوجه خاص وفى البلدان الشرقية بوجه عام - اذ ان سيف العدالة فى هذه البلدان هو رمز السلطة وسرعة عقاب المجرمين هى الأسلوب العملى الوحيد لقمع الاضطرابات والتفلاقل التى يشيرها البدو

---

(٢٣) نفس الملف - رقما ١٦ و ١٨ من مرى الى مالمسبورى بتاريخ

٤/١٧ و ١٨٥٢/٥/٣ .

(٢٤) نفس الملف - رقم ١٤ من مرى الى مالمسبورى بتاريخ ١٦/٤/١٨٥٢ .

(٢٥) نفس الملف - رقم ١٩ من مرى بتاريخ ١٨/٥/١٨٥٢ .

القائون في الصحارى المجاورة لوادى النيل \* الا ان فؤاد تناول المسألة بمهارة حققت كل أهداف الباب العالى اذ ان منح عباس حق القصاص لمدة سبع سنوات كان اجراء نظريا - فاذا ما نقلت كل حيثيات الحكم الى استانبول كان يسهل جدا اثناء مراجعتها ان توجد ثغرات من شأنها ان تثير نزاعات خطيرة ، وكان خطأ عباس أنه خلال مفاوضاته مع فؤاد لم يقيم باستشارة مري أو أى قنصل عام آخر (٢٦) \*

ومهما كان الأمر فقد عادت العلاقات بين عباس والباب العالى الى ما كانت عليه قبل احتدام النزاع \* وحين نشبت حرب القرم أبدى عباس استعداداه لالظهار ولائيه للسلطان بوضع قوة برية وبحرية تحت تصرفه (٢٧) وجرت استعدادات فى الاسكندرية لتجهيز السفن والرجال وذلك رغم أن اهمال الأسطول منذ توليه الحكم قد جعل السفن غير صالحة للنزول الى البحر أو القتال \* أما البحارة فقد أخذ عدد كبير منهم من المصانع والسكة الحديدية التى كان يجرى العمل فيها وأرسلوا الى الترسانة أو الى السفن \* وجرى تشجيع الجنود على التطوع بنفس الأسلوب (٢٨) \*

---

(٢٦) نفس الملف - رقم ٢٢ من مري الى مالمسبورى بتاريخ ١٨٥٢/٥/٢٠ \*

(٢٧) نفسه - وزارة الخارجية الى جون جرين بتاريخ ١٨٥٣/٧/٥ \*

(٢٨) ١١٩/٧٨ - رقم ٢ من جون جرين الى ستراتفورد دى ردكليف

بتاريخ ١٨٥٢/٦/٢٣ \*

وفي ٢٠ يولييه ١٨٥٣ بدأ تحرك اسفن والقوات \* وأبدى  
المصريون المسلمون الذين أثارتهم الاستعدادات الحربية  
والأخبار التي أيقظت مشاعرهم الدينية بعض التعصب الذي كانت  
له آثار سيئة ، رغم أنهم لم يقوموا بما يتعدى الكلام ، ولو أن  
احتدام المشاعر هذا أدى الى مقتل أو جرح بعض الرعايا  
البريطانيين برغم الاجراءات المتشددة التي اتخذتها الحكومة  
المصرية لقمع النزعات التعصبية لدى السكان ولو أن هذا لم  
يهدىء روع المسيحيين المشاركة في حين أن احتدام مشاعر السكان  
الأوروبيين أدى الى توقع أعمال العدوان منهم لا من  
المسلمين (٢٩) \* وبالإضافة الى ذلك فقد جرى سحب الأقباط  
المجندين في الجيش النظامى من الخدمة العسكرية ووضعهم في  
أعمال السكة الحديدية (٣٠) \*

ورغم ذلك فان الأحوال الداخلية للبلاد ككل كانت هادئة  
لصرامة الحكومة (٣١) خاصة وأن المنافسة بين إنجلترا وفرنسا  
قد غطى عليها انضمام الدولتين الغريبتين الى الدولة العثمانية  
ضد روسيا \* وبالإضافة الى ذلك فقد جرى نقل مرى الذى أدت  
علاقته الشخصية بعباس الى غضة الطرف عن مساوىء سياسته

---

(٢٩) نفس الملف - رقم ٥ من جرين الى كلارندون بتاريخ ١٣ اغسطس

١٨٥٣ \*

(٣٠) نفس الملف - من جرين الى أدنجتون بتاريخ ٨ اغسطس ١٨٥٣ \*

(٣١) نفس الملف - رقم ١٤ من جرين الى كلارندون بتاريخ ١٩/٩/١٨٥٣ \*

الداخلية • وأرسلت تعليمات الى القنصل البريطانى العام  
الجديد - بروس - لكى يقيم علاقات طيبة مع زميله الفرنسى  
- ساباتييه - مع لفت نظره الى أن محاولات الايقاع بينهما  
يمكن تلافيها بالاتصال المباشر والعمل المشترك • وجرى توجيه  
نظر بروس الى ضرورة لفت نظر الباشا الى أن الحكومة  
البريطانية لا ترغب فى الحصول على نفوذ سياسى أو فى الانفراد  
بالنفوذ فى مصر أو تعكير العلاقات القائمة بين السلطان والوالى  
ولو أنه يحق لها أن تتوقع تطبيق المعاهدات وتمتع رعاياها  
بالمعاملة المطلقة • كما وجه نظره الى ضرورة انتهاز كل الفرص  
ليؤكد للباشا أن إنجلترا لا ترغب الا فى أن تتمتع مصر بالرخاء  
والتقدم وأن تظل بمثابة الطريق الى الهند وأنه طالما يحافظ  
على سلامة هذا الطريق يكون جديرا بصداقة الحكومة البريطانية  
ومساعدتها (٣٣) •

ويبدو أن الحكومة البريطانية أدركت نتيجة للعمل المشترك  
مع فرنسا ضد روسيا مدى ضرور المنافسة القديمة بين الدولتين  
وهى المنافسة التى أدت الى خلق حزبين فى مصر يعتمد أحدهما  
على الموظفين الفرنسيين فى الحكومة المصرية الذين كانوا يسعون  
الى اقتناع الوالى بأن كل اصلاح تتبناه إنجلترا لا يهدف الا الى

---

(٣٢) ١٠٣٤/٧٨ - رقم ١٦ - وزارة الخارجية الى بروس بخاربيخ

• ١٨٥٤/٣/٣١

التمهيد للاحتلال البريطاني • أما الحزب الآخر الذى كان يقوم على المؤيدين النفوذ البريطانى فلم يدخر أنصاره وسعا فى تشويه أى خطوة يخطوها ممثل فرنسا للدفاع عن حقوق ومصالح الرعايا الفرنسيين • ونتيجة لهذا الوضع كان الوالى يشك فى كل ما يقترح عليه بصدد ادخال الاصلاحات على ادارته الداخلية ويبالغ فى الأهمية المضافة على ابداء الصداقة وحسن النية له مستغلا ذلك فى الاساءة الى الأشخاص والسعى الى احياء نظام الاحتكار •

لكل ذلك اعتقد بروس أن حسن التفاهم والصراحة مع قنصل فرنسا العام من شأنهما أن يؤديا الى وضع حد للمؤامرات التى ألحقت الضرر بالاصلاحات • ولهذا لفت نظر ساباتييه الى ضرورة اتحاد انجلترا وفرنسا فى اقناع عباس بالقضاء على كل أسباب الشكوى المترتبة على سوء ادارته واهماله والتخلى عن نظام الاحتكار الذى كان يعود اليه بالتدريج • وكان رد ساباتييه أنه يقر خطأ سابقه الذين كانوا يسعون الى اكتساب النفوذ مما أدى الى أسوأ النتائج وأنه يجبذ مشروع السكة الحديدية الذى زكاه لدى الوالى • ولكنه أشار الى الميزات الممنوحة لشركة بننسلوار وأورينتال دون غيرها مما كان يشكل خرقا للمعاهدة المعقودة بين الباب العالي وفرنسا التى منحت بمقتضى هذه المعاهدة على وضع الدواة الأولى بالرعاية • وأقر

ساباتييه أن مصالح إنجلترا تفوق مصالح فرنسا وأبدي استعداداه للقيام بعمل مشترك لحفز الاصلاح . ثم أكد بروس لساباتييه أن الحكومة البريطانية لا تسعى الى احتكار النفوذ في مصر بل كل ما يهمها هو تحسين المواصلات الى الهند عبر مصر واصلاح ادارة البلاد وأن من واجب فرنسا أن لا تغار أو تشتك في ذلك وكان يحدّ تضامن الدولتين الغريبتين الذي من شأنه أن يرغم الوالى على التخلي عن مشروعاته الاحتكارية وعلى اصلاح ادارة البلاد (٣٣) . وحين لمس عباس هذا التضامن عاد الى توثيق علاقته بالباب العالى مما أضعف نفوذ ممثلى الدول الأوروبية الذى نتج عن سوء علاقته بالباب العالى مما جعل بروس يؤجل اثاره الشكاوى الى ما بعد انتهاء الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا (٣٤) .

وأرسل عباس . . . جندى الى تركيا وخطب ابنة السلطان عبد المجيد الى ابنه الهامى وطلب من الباب العالى أن ينعم عليه بلقب « العزيز » وراوده أمل في تعديل نظام وراثه العرش لصالح ابنه الهامى (٣٥) . على أن كل ذلك لم يتمخض عن شىء نتيجة لوفاة عباس المفاجئة في ١٣ يوليه ١٨٥٤

(٣٣) ١٠٣٥/٧٨ - بروس الى كلارندون بتاريخ ١٦/٣/١٨٥٤ .

(٣٤) نفسه - نسخة رقم ١ من بروس الى ردكليف في ١٥/٣/١٨٥٤ .

(٣٥) نفسه - رقم ٣٩ من بروس الى كلارندون بتاريخ ١٣ أغسطس .

وهي الوفاة التي يرجح أنها كانت نتيجة أزمة عصيبة (٣٦) مرتبطة  
بقلقه بصدد تعديل نظام وراثة العرش واحتمال انهيار  
الامبراطورية العثمانية وطمعه في اتخاذ لقب الخلافة .

وقد سعى أنصار عباس الى تأخير تولى سعيد الحكم الى  
أن يمكنهم التآمر في عاصمة الدولة لضمان الحكم لالهامى .  
الا أن قنصلى بريطانيا وفرنسا تدخلتا تنفيذا لشروط تسوية  
١٨٤٠ - ١٨٤١ بالصورة التي ضمنت العرش لسعيد .

وكان سعيد حين تولى الحكم في الثامنة والثلاثين من عمره  
وكان يتقن اللغتين الانجليزية والفرنسية كما كان معروفا بميله الى  
فرنسا . وقد رحب كل سكان مصر بتوليه الحكم بسبب سخطهم  
على عباس الذى أرغم الكثيرين على العمل في بناء قصوره  
وتنفيذ مشروعاته الأخرى واصطنع القسوة في تشغيلهم ، هذا  
الى بخله . واستهل سعيد حكمه بالصفح عن الاساءات التي  
تعرض لها هو وأبناء ابراهيم وبارسال رسالة ودية الى الهامى  
وتصريحه بأنه لن يميل الى فرنسا أو لانجلترا بل سيكرس جهوده  
لتحقيق رخاء مصر .

ومهما كان الأمر فقد آذن عهد سعيد بفترة كان مقيضا لها  
أن تلحق أبلغ الضرر بمصر وسكانها .

---

(٣٦) نفسه - رقم ٣٥ بتاريخ ١٧/٢/١٨٥٤ ورقم ٣٩ أملاه - وكلاهما  
من بروس الى كلارندون .



## الموضوع الثانى

---

انهيار نظام الاحتكار فى مصر

بعد عام ١٨٤١



يسجل عهد محمد على نهاية العزلة التي خيمت على مصر في أعقاب الكشوف الجغرافية والفتح العثماني كما يسجل انخراطها في الاقتصاد العالمي ، فلقد شهد حكم محمد على بداية انتقال مصر من الاقتصاد المغلق الى الاقتصاد المفتوح وتميز بسيطرة الدولة على القسط الأكبر من النشاطات الاقتصادية (١) .  
فما أن تخلص من أخطر خصومه السياسيين - أي المماليك - في عام ١٨١١ حتى بدأ يطبق نظام الاحتكار الذي ما لبث أن شمل كل نشاطات مصر الاقتصادية : فقد وضع يده على معظم أراضي البلاد وسيطر على اقتصادها (٢) وصناعاتها ، وذلك بعد مصادرتة للأراضي التي منح مساحات كبيرة منها للإبنائه وأقاربه وضباطه .

---

(١) حسين خلاف : التجديد في الاقتصاد المعري الحديث ( القاهرة )

(١٩٦٢) ص ٤ - ٥ .  
(٢) اشار كلوت بك . (Aperçu général sur l'Egypte, II, P. 198) الى أن نظام الاحتكار لم يكن يطبق على كل منتجات مصر ، فقد كانت توجد كثير من السلع - ومنها معظم الحبوب - التي كان الفلاحون يتمتعون بحرية التصرف فيها .

ولم يخضع توزيع الأراضي هذا لأى قانون بل كان وليد مزاج الباشا ولم يصحبه أى تحرر عن كان يمتلك هذه الأراضي في عهد البكوات المماليك الذين قضى عليهم أو اضطروهم الى الهجرة ، ويبدو محمد على افترض أن كل الأراضي التى لا يوجد لها مالك فعلى أصبحت تابعة للحكومة ، وبالتالي فإنه فرض عليها نظام الالتزام أو قام بتوزيعها أو بزراعتها لحسابه الخاص بالشكل الذى يعود عليه بأقصى ربح ممكن (٣) . ولقد عانى الفلاحون العاملون في هذه الأراضي من مختلف الصعوبات وهبط مستواهم حتى أصبحوا في وضع شبيه بأقنان الدولة بحيث هاجر عدد كبير منهم من قراهم أو من مصر . كما ضيق نظام الالتزام على الصناعات وبخاصة اليدوية منها وقضى على ما تبقى لها من روح المبادرة الحر (٤) .

أما التجارة فكانت تتم اما عن طريق الالتزام أو احتكار الحكومة ، وكانت تجرى ادارتها بالصورة التى تعود على الوالى بأقصى ربح ممكن : فكان يصدر فرمانات تنص على بيع سلعه للتجار الذين يفضل التعامل منهم ، كما كان يعتمد الى رفع الأسعار بشتى الوسائل مما أدى الى شلل التجارة المحلية .

(٣) وثائق وزارة الخارجية البريطانية - الملف ٣٦٥/١٩٥ - الوثيقة رقم ١٠ من مرى لى كاتنج بتاريخ ١٨٥٢/٤/٢١ .

(٤) راجع : على الجريلى : تاريخ الصناعة في مصر ( القاهرة ١٩٥٢ ) - أيضا : Issawi, Egypt in Revolution (London, 1963), P. 48.

وفي عام ١٨١٨ كان تسعة أعشار التجار من المغامرين الأجانب الذين بدأوا نشاطهم دون رأسمال يذكر - فلدى وصولهم الى البلاد كانوا يقيمون علاقات مع أحد رجال حاشية الباشا ويطلبون منه أن يصدر لهم فرمانا يمنحهم كمية معينة من الجبوب التي يدفع ثمنها بعد مرور عدة أشهر على استلامها ، وهذا الثمن كان يساعدهم على الاتجار الذي تعززه صلاتهم ببعض رجال الحكومة (٥) \* وكان بإمكان هذه القلة من التجار المحظوظين من ايطاليين ويونانيين ، أن يقدموا لمحمد على قروضا مالية كان بعضها بمثابة عربون لثمن الجبوب المتوخى تقديمها (٦) \* ومما أدى الى تعقيد احتكارات الحكومة تدخل قناصل الدول الذين كان عدد كبير منهم وكلاء للوالى وكانوا يمارسون تجارة واسعة النطاق عادت عليهم بأرباح طائلة (٧) \*

وقد طبق نظام الاحتكار على البلدان الأخرى التي امتدت اليها سلطة الوالى ، وكان من الصرامة في السودان بحيث توقف السكان عن احضار سلعهم الى الأسواق \* وفرضت الحكومة ضرائب على نقل المنتجات من مكان الى آخر مما عرقل الحركة

---

Helen Rivlin, The Agricultural Policy of Muhammed Ali in (٥) Egypt, P. 175.

(٦) وثائق وزارة الخارجية البريطانية - بارنت الى كاننج في اول

ديسمبر ١٨٤١ .

(٧) محمد فؤاد شكرى وزميله ، بناء دولة - مصر محمد على

( القاهرة ١٩٤٨ ) ، ص ٤٠٢ .

التجارية - اذ لم يستثن من احتكارات الحكومة سوى العبيد \* وفي كريت جرى احتكار الزيت (٨) ، وفي الشام طبق نظام الاحتكار بوجه عام وبخاصة على الحرير \* وكان هذا النظام من أهم العوامل التي جعلت محمد على يسعى الى التوسع في شبه الجزيرة العربية خاصة وأن رغبته في احتكار البن دفعته الى ارسال حملة الى اليمن (١٨٣٣ - ١٨٣٨) (٩) \* وأدى كل ذلك الى اضمحلال تجارة الترانزيت بين افريقيا وشبه الجزيرة العربية (١٠) \*

وقد جنى محمد على أرباحا طائلة من الاحتكار الذي كان الركيزة الأساسية لسياسته المالية وآداته لتجهيز جيشه وأسطوله والانفاق على حملاته الحربية \* وفي ظل هذا النظام الاحتكارى أصبح محمد على في الواقع هو الوحيد الذي يمسك بزمام حركة التصدير في مصر ، اذ كان ما مقداره ١٦/٣ من تجارة الصادر حكرا عليه ، ولكن لم تكن له سيطرة مشابهة على الواردات - فقد كان يخضع للتعليمات الواردة في مرسوم سلطاني كان ينص على أن اتفاقا دوليا قد تم التوصل اليه بين الباب العالي والتجار الأجانب الذين حصلوا على حق ادخال

---

(٨) زينب عصمت راشد : كريت تحت الحكم المصرى ( القاهرة ١٩٦٤ ) .

(٩) بناء دولة ، ص ٥٥ - ٧٠ .

(١٠) خلاف ، ص ٣٤٥ .

سلمهم الى كل أرجاء الممتلكات السلطانية بشرط رفع رسم استيراد قدره ٣٪ ، وكان تطبيق هذه القاعدة يوفر للتجار الأجانب مركزا متميزا بحكم أنهم كانوا يدفعون رسوما أقل مما يدفعه الرعايا العثمانيون من مسلمين وغير مسلمين \* على أن محمد علي كان أكبر مستورد في البلاد والدليل على ذلك أن ٤٠٪ من واردات عام ١٨٣٦ كانت لحساب الحكومة (١١) \*

وقد تطور نظام الاحتكار الذي فرضه محمد علي في الوقت الذي كانت فيه التجارة الحرة قد وطدت أقدامها في أوروبا الغربية ، خاصة وأن ازدياد الانتاج في بريطانيا قد استنزم محاولة الحصول على فرص تجارية متزايدة وجعل الحكومة البريطانية تسعى الى دراسة أحوال التجارة في شتى أنحاء العالم بهدف إعادة النظر في المعاهدات القائمة والحصول على أحسن الشروط للتجارة البريطانية (١٢) \* وتمشى السلطان العثماني محمود الثاني مع اتجاهات بريطانيا بحكم أنه كان يسعى الى تدمير أكبر مصدر لدخل محمد علي بحيث يمكنه أن يززع قدرته على الاحتفاظ بجيش قد يهدد السيادة العثمانية على مصر وأملاكها ، فعرض على الدول الأوروبية أن

---

A.E Crouchley, The Economic Development of Modern Egypt (London, 1938), PP. 88 — 9 (11)

(12) رفلن ، ص ١٨٢ - ٢ - أيضا تروثسلي ، ص ٧٥ - ٧٦ .

يمنحها تنازلات واعفاءات جمركية وذلك بهدف اقامة العراقيل في وجه الوالى واضعاف علاقاته بالدول العظمى . وفي عام ١٨٣٤ أصدر فرمانا ينهى الاحتكارات الحكومية في الشام ، وفي ١٦ أغسطس ١٨٣٨ وقعت الاتفاقية الانجليزية - التركية ( أو معاهدة بالطة ليمان ) (١٣) التي كانت تهدف الى تحطيم الممارسات الاحتكارية في الامبراطورية العثمانية + وكان أهم ما نصت عليه هذه المعاهدة ما يلي :

١ - التبادل الحر للمنتجات +

٢ - منح الرعايا البريطانيين وضع الدولة الأولى بالرعاية وتمتعهم بكل المزايا الممنوحة لرعايا الدول الأخرى +

٣ - تحديد الرسوم على الواردات بـ  $\frac{٣}{١٠}$  مع اضافة  $\frac{٢}{١٠}$  على القطاعي والغاء الضرائب الاضافية على الواردات +

٤ - تحديد الرسوم على الصادرات بـ  $\frac{١٢}{١٠٠}$  وأن يدفع المصدرون الأجانب  $\frac{٣}{١٠٠}$  منها +

وحين أحاط محمد على بتوقيع معاهدة بالطة ليمان صرح بأنه سينفذ شروطها ، خاصة وأنه كان يدرك حاجته الى عطف

---

(١٣) يوجد نص الاتفاقية في :

J.C. Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East Princeton, 1956) I, PP. 110 — 11.



الدول الأوروبية التي كان يسعى إلى الحصول على مساعدتها له في صراعه المرتقب مع الدولة العثمانية • ولم يشترط الا أن يتمتع التجار الانجليز عن مطالبة المزارعين بشراء المحصول قبل جنيه • على أن يتمكنوا من شرائه بمجرد نقله من الأرض ، كما سمح بأن يتمتع المزارعون بالحرية الكاملة في نقل محاصيلهم الى السوق وأن يتصرفوا فيها كما يشاءون وأن يبيعوها لمن يقبل شراءها (١٤) • وبعد أن انتهى نزاع محمد علي مع الباب العالي صرح بأنه راغب عن الاحتكارات على اعتبار أنه مقتنع بأن حرية التجارة في مصلحته (١٥) • على أن القنصل البريطاني العام في مصر - الكولونيل بارت - توقع أن يحاول محمد علي التهرب والتسويق وتأجيل تطبيق التجارة الحرة على مصر وذلك لوجود أشخاص يفيدون من استمرار الأوضاع القائمة نتيجة للنفوذ القوي الذي حصلوا عليه لدى الوالي الذي كانت مصلحته تتطابق مع مصالحهم (١٦) • وقد ثبتت صحة توقعات بارت ، بحكم أن الوالي لم يكن على استعداد للاستغناء عن احتكاراته وأبدى رغبته في ابداء أقوى مقاومة ممكنة قبل أن يرغم بالتدريج على قبول شروط معاهدة بألطة ليمان والمعاهدات المماثلة

(١٤) رفاق ، من ١٨٥ - ٦ .

(١٥) P.O. المذ ١٢/١٤٢ .. الوثيقة رقم n من بارت بشاريخ

١٩ أغسطس ١٨٤١ .

(١٦) نفس الملف ، رقم ١٨ من بارت بشاريخ ١٩ سبتمبر ١٨٤١ .

الموقعة بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية الأخرى (١٧) \*

وكان اللورد بالمستون ، وزير الخارجية البريطانية ، يعتقد منذ البداية أن الاحتكار لا تقل آثاره إذا ما امتد الى بلد بأسره بدلا من امتداده الى جزء من هذا البلد ، لأن هذا الاحتكار كان يفرضه الحاكم لمصلحته وحده بدلا من منحه لأشخاص معينين \* وكانت الاحتكارات التي فرضها محمد علي على مصر ، لمصلحته الخاصة ، تتناقض مع المعاهدة نفس تناقضها فيما لو كان قد منحها ليستفيد منها أشخاص آخرون \* وازاء استحواذ الوالى على مساحات واسعة من أراضى مصر فقد كان من رأى بالمستون أنه ما لم يكن قد حصل عليها عن طريق الشراء فلا يمكنه الاحتفاظ بها الا اذا اعتبر حائزا لها باعتباره ممثلا لسيده السلطان لا باعتباره واليا لا يتعدى كونه أحد رعايا السلطان (١٨) \* ومما يجدر ذكره أن معاهدة لندن الموقعة فى عام ١٨٤١ كانت تنص على وجوب احترام كل المعاهدات التجارية التي عقدها الباب العالي مع الدول الأجنبية \*

وقد قدم محمد علي المتجار بعض التازلات الصغرى حين

---

(١٧) بادوت الدول الآتية الى عقد معاهدات مماثلة مع الدولة العثمانية : النمسا - باجيكيا - فرنسا - هسبة الهانسا - سردينيا - السويد - النرويج - اسبانيا .. جراندة - البراندرك ( بناء دولة ) ص ٥٩ ) \*

(١٨) ملف ، وزارة الخارجية البريطانية ٧٨/٧٠٨ - بالمستون الى كاميل فى ١٢ أكتوبر ١٨٣٩ .

سمح لهم بالاتصال المباشر بالفلاحين وذلك رغم احتفاظه بحق تحديد سعر السلعة وشراء المنتجات بالسعر الذي يحدده ما لم يشتريها شخص آخر (١٩) \* وفي أغسطس ١٨٤١ وجد بارنت أن معاهدة ١٨٣٨ لا تطبق وعزا ذلك الى عدم امتناع الأفراد عن تقديم الشكاوى الواضحة من الحكومة نتيجة لخرقها للمعاهدة اذ كان بعضهم يخشى اغضاب الوالى الذى كانوا يدينون له بشرواتهم ، فى الوقت الذى كان فيه آخرون يفضلون الوقوف موقفا سلبيا فى حين اعتقدت القلة الا فائدة على الاطلاق من القيام بأى تحرك وأن من الأفضل ترك الأمور تسير فى مجراها . لهذا كله صعب على بارنت أن يعثر على حالة محددة تمكنه من أن يبنى عليها شكواه (٢٠) \* وهكذا استمر احتكار السفن التى تبحر على النيل وترعة المحمودية ، وازاء عدم السماح بامتلاك السفن واستئجارها فقد ثبت ألا جدوى من حرية شراء منتجات البلاد (٢١) \*

واشترك بارنت مع القنصلين العامين الروسى والفرنسى وعدد غير قليل من التجار البريطانيين فى الاحتجاج على هذا الاجراء ، فوعده محمد على بالاستجابة لاحتجاجاتهم \* وكان تعليق بارنت على ذلك وجوب مواصلة الضغط على الوالى قبل

(١٩) رفلن ، ص ١٨٦ \*

(٢٠) بارنت الى كاننج فى اول ديسمبر ١٨٤١ \*

(٢١) بارنت الى كاننج فى ٢٠ مارس ١٨٤٣ \*

أن يتحقق ما يشبه حرية التجارة في مصر وأنه ما لم يشد الباب  
العالي أرز بريطانيا بصدد تطبيق معاهدة ١٨٣٨ على مصر  
فسيجد محمد على باستمرار حججا لتصله من تطبيق بنود  
المعاهدة التي تمس حقه في الاحتكار \*

وردا على الاحتجاجات المتكررة التي تقدم بها بارنت الى  
الوالي أكد محمد على مرارا وتكرارا رغبته في الغاء الاحتكارات  
بالتدرج وتطبيق حرية التجارة على مصر \* وأشار الى صعوبة  
اجراء تغيير مفاجيء على نظام استمر فترة طويلة وذلك رغم  
استغلاله لمعاهدة ١٨٣٨ في رفع رسوم التصدير والاستيراد \*  
وحينئذ أبلغه بارنت أنه في حالة عدم الغاء الاحتكارات سيضطر الى  
ابلاغ التجار البريطانيين بأنهم في حل من عدم دفع الرسوم  
الاضافية على التصدير والاستيراد التي نصت عليها معاهدة  
١٨٣٨ ، وحث في نفس الوقت على ضرورة اصدار أوامر  
واضحة للمديرين وغيرهم من الموظفين حتى لا يثيروا العراقيل  
أمام شراء القطن والحبوب وغير ذلك من منتجات مصر من  
المزارعين وطلب اعلان ذلك في شتى ربوع مصر \* ورغم نجاحه  
في التوصل الى الغاء احتكار الأبنذة والخمور فقد كان يشك  
في جدوى العمل على فرض الرسم بشكل آخر عن طريق فرض  
ضريبة على تجار القطاعي في المدن (٣) \* وقد أصدرت حكومة

---

(٢٢) الملف رقم ١٣/١٤٢ - رقم ٣ من باراتنا بتاريخ ١٧ يناير ١٨٤٢ \*

النمسا وأمرها الى قنصلها العام بلا اشتراك مع بارت في القيام  
بجهد بصدد هذه المسألة ، كما صدرت تعليمات الى قنصل  
فرنسا العام بأن يبذل كل ما في وسعه بالتنسيق مع قنصلي النمسا  
وبريطانيا لاقتناع الوالى باتباع نظام البيع العلنى بالمزاد وهو  
ما وعد مرارا وتكرارا بتنفيذه (٣٣) •

ورغم ذلك كله فقد واصل محمد على اتباع سياسة  
الاحتكار واقترح على بعض التجار أن يبيع لهم قطن مصر والسودان  
ومحاصيلها بسعر مخفض في مقابل بعض التسهيلات المالية  
التي يقدمونها له (٣٤) • كما قرر بيع كمية كبيرة من القمح كان  
قد عرضها في الماضى على بعض الأطراف ( ٢٥ ) • وفى تلك  
الأيام كان يفيد من بنود المعاهدة التى مكنته من رفع الرسوم  
على الصادرات والواردات • وكان بارت يرى أن أهم المضار  
التي كان من الممكن أن تواجه التجارة البريطانية ، فيما  
لو أمكنت ازالة كل المصاعب الأخرى ، ترتبط بالنظام الذى كان  
الوالى لا يزال يفرضه فيما يتعلق بالاستيلاء على أراضى الفلاحين  
مما كان يعنى أنه يفرض بالتدريج احتكارا لكل منتجات

---

(٢٣) نفس الملف ، رقم ٩ و ٣٩ من بارت بتاريخ ٢٣ فبراير ١٨٤٢  
• ١٧ نوفمبر ١٨٤٣ •

(٢٤) من بارت بتاريخ ٢٦ أغسطس ١٨٢١ •

(٢٥) الملف ٥٤١/٧٨ - رقم ٦ وزارة الخارجية الى بارت في  
٣ ابريل ١٨٤٣ •

البلاد (٢٦) • فقد منح أفراد أسرته ما يقرب من كل شفالِك الصعيد وذلك سعيا منه الي التهرب من بيع محاصيل هذه الأراضى بالمزاد العلنى فى الوقت الذى كان يستطيع فيه أن يمنحها لأصدقائه (٢٧) • كما كان قد أصبح مالكا لثلثى الأراضى الصالحة للزراعة فى مصر وكان يضع يده على نسبة كبيرة من منتجات الفلاحين التى كانت الحكومة تشتري قدرها منها بالسعر الذى تحدده وتأخذ قدرها آخر فى مقابل الضرائب •

ولهذا فاذا ما اعتبر مالكا للأرض كان حر التصرف فى المحصول ، أما اذا اعتبر حاكما لمصر فانه كان يتصرف فى الأراضى بالنيابة عن سيده السلطان وحينئذ كان عليه أن يطبق المادة الثانية من معاهدة ١٨٣٨ (٢٨) • التى نصت على بيع محاصيل

---

(٢٦) من باونت فى ٣ يناير ١٨٤٢ •

(٢٧) ٨٥٢/٧٨ - من باونت بتاريخ ١٥ يناير ١٨٤٤ •

(٢٨) كان نص هذه المادة كالآتى : « بسمح لرعايا جلالة ملكة بريطانيا او لهندوبهم بان يشتروا فى كل الأماكن الداخلة ضمن الاملاك العثمانية ( سواء بالنسبة الى التجارة الداخلية او التصدير ) ، دون اى استثناء ، منتجات او نظير او محاصيل هذه الاملاك ويتمهد الباب العالى رسميا بالغاء كل الاحتكارات المعروفة على المنتجات الزراعية او كل سلعة اخرى ، وكذلك الغاء كل التصريحات التى تصدرها الحكام المطلقون لشراء أى سلعة أو نقايها من مكان الى آخر بعد شرائها . وكل محاولة لتبديل الارشام رعايا جلالة ملكة بريطانيا على استلام مثل هذه التصريحات من الحكام المحليين ستعتبر خرقا للمعاهدات وسيوقع الباب العالى فى الحال عقوبات قاسية على اى وزراء وغيرهم من الموظفين اللذين يرتكبون مثل هذه المخالفات ، وسيجرى انصاف الرعايا البريطانيين - بتطبة اكر قدر من العدالة - من كل الضرار والخسائر التى نشت بمرور الزمن انهم قد تعرضوا لها » •

الأراضى بالمزاد العلنى ، وهو ما كان يطبق فى استانبول على المحاصيل التى فى يد الحكومة العثمانية (٢٩) . وقد أنصاع محمد على لضغط القناصل وأصدر تعليمات تقضى بمنح الأجانب حق بناء السفن من أجل استعمالهم الخاص وبأن ينقلوا عليها منتجات البلاد بشرط أن يقوم بالخدمة فيها ملاحون مصريون وأن تحمل العلم التركى . ولكن قبل أن يتمكن التجار من بناء السفن لمسوا صعوبة استئجار مزيد من السفن فى حين أن من كانوا يمتلكون سفنا لم يستطيعوا الحصول على ملاحين . وقد قيل فى ذلك ان احتكار السفن قد انتهى برغم كون الملاحين من رعايا الباشا الذين لا يمكنهم التصرف الا بحسب مشيئته (٣٠) .

وحاول بارنت اقتناع الوالى بالتخلى عن احتكار وسائل النقل وفتح المناطق الداخلية من البلاد أمام ملاحه الأجانب وذلك رغم أن التجار البريطانيين كانوا لا يتجهون الا نادرا الى داخل البلاد بقصد شراء الحنطة أو غيرها من المنتجات - فهم كانوا يفضلون الشراء فى الاسكندرية على المتاعب والمخاطر الناتجة عن نقل السلع عن طريق النيل (٣١) . ولم يلتزم محمد على بأى وعد بصدد احتكار وسائل النقل ، بل انه احتكر الطريق البرى

---

(٢٩) الملف ٥٤١/٧٨ - رقم ٢٧ من بارنت بتاريخ ١٩ اغسطس ١٨٤٣ .

(٣٠) رفلن ، ص ١٨٧ .

المتمدد بين القاهرة والسويس ، وفي عام ١٨٤٦ انتقلت خدمات النقل الى الحكومة المصرية وأصبح كل الموظفين الأوروبيين في الشركة تابعين للحكومة وانقصت رسوم السفر من ١٥ الى ١٢ جنيهها مما أدى الى سخط المسافرين البريطانيين والحكومة البريطانية التي حاولت دون طائل عقد معاهدة مع الوالى حول الطريق البرى بين القاهرة والسويس ، كما اشترى محمد على سفن شركة بنسولار وأورينتال التي كانت تقوم بالنقل النهزى على النيل .

ورغم أن محمد على لم يعرض فطنه في المزاد العلنى ولم يبد أى استعداد للسماح لأى تاجر مستعد لدفع الثمن اللازم بالحصول على هذا القطن ، فان لورد بالمستون لم يعتقد أن الوالى كان يسعى الى التهرب من شروط المعاهدة ، وكان يرى أن الأمر لا يستدعى تدخلا من جانب الحكومة البريطانية . فقد يكون الاجراء الذى اتخذه مربحا له ، ولكن حتى يتضح أن الرعايا البريطانيين لا يعاملون على نفس الأسس المطبقة على رعايا الدول الأخرى لم يكن ثمة مبرر للشكوى (٣١) . لهذا كان من رأى بارنت أن الأمر يستلزم ابلاغ التجار البريطانيين بأنهم فى حل من عدم دفع الرسوم التى نصت عليها المعاهدة الا بعد أن تطبق كل نصوصها (٣٢) . وقد وافقت

---

(٣١) من بارنت بتاريخ ٢٠ مارس ١٨٤٣ .

(٣٢) من وزارة الخارجية الى بارنت بتاريخ ٢٥ يولية ١٨٤٣ .



الحكومة البريطانية على وجهة نظره هذه ، ولكن لما كان  
سفيرها في استانبول سير ستراتفورد كاننج ( ستراتفورد  
دى ردكليف فيما بعد ) قد ذهب الى أن الباب العالى قد تعهد  
باقناع محمد على بالغاء الاحتكارات وبأن يمتنع من ائارة  
ما يحمل الحكومة البريطانية على الشكوى منه فقد أرسلت  
التعليمات الى بارنت لكيلا يتخذ أى خطوات أخرى لحث  
الوالى على تنفيذ المعاهدة ما لم تصله تعليمات أخرى من وزارة  
الخارجية أو من كاننج وذلك بعد التأكد من نتائج التدخل الذى  
وعد الباب العالى بالقيام به (٣٤) . ولم ينكر الرئيس أفندى  
( وزير الخارجية التركى ) عدالة الشكاوى البريطانية كما لم  
يعترض على موقف كاننج منها ، وان يكن قد أبدى كثيرا من  
التردد فى اصدار أوامر علنية لمحمد على فى ذلك الوقت ذاهبا  
الى أنه قد وعد بالغاء الاحتكارات بمجرد انتهاء مدة العقود  
القائمة خاصة وأن الصدر الأعظم قد كتب الى الوالى بنفس  
الفحوى الذى طالب به كاننج (٣٥) . الا أن بارنت لم يبد  
استعداده اتوقع نتيجة ايجابية جدا لمساعى الباب العالى بصدد  
تنفيذ المعاهدة فى مصر لأن محمد على كان يستند الى حزب قوى  
فى استانبول ولأن مشاكل الدولة العثمانية المالية كانت تحول

---

(٣٣) وزارة الخارجية الى بارنت بتاريخ ٢٤ مارس ١٨٤٢ .

(٣٤) نفس الوثيقة .

(٣٥) الملف ١/١٤١ - رقم ٢ من كاننج الى بارنت فى ٥ مارس ١٨٤٢ .

بينها وبين اثاره محمد على الذى كان يحتمل أن يعمد الى تأخير دفع الارسالية التي كان على مصر أن ترسلها سنويا الى استانبول (٣٦) .

على أن محمد على أبدي في مايو ١٨٤٢ استعدادا أكثر من ذى قبل للتمشى مع مقترحات بارنت والقناصل العاملين الآخرين ، فوافق على أن يقوم في المستقبل ببيع منتجات الأراضى التي يمتلكها بالمزاد العلنى ، فباع ٤٠٠٠٠ رءب من محصول بذرة السمسم المتوقع وباع كل كميات الجيوب التي توقع الحصول عليها بسعر يقل عما عرضه أربعة أو خمسة من التجار الذين اعتاد محاباتهم . وقد ألغى اتفاق البيع بعد تدخل بارنت . ومما تجدر الاشارة اليه أن الطلب قد اشتد على طلب بذرة السمسم في فرنسا التي كان يجرى فيها استخدام زيت السمسم في انتاج الصابون (٣٧) . كما وافق محمد على على تطبيق معاهدة ١٨٣٨ وذلك حين وعد بوقف احتكار القطن بعد جنى المحصول التالى .

ثم انتقل بارنت الى مسألة التعريفه التي حددت الرسوم الواجب دفعها عن مختلف سلع التصدير والاستيراد . وكان من رأيه أن التعريفه قد حددت دون ادراك كاف لمتوسط أسعار

---

(٣٦) الملف رقم ١٣/١٤٢ - المكاتبه رقم ١٨ من بارنت الى وزارة الخارجية ٢١ ابريل ١٨٤٢ .

(٣٧) نفس الملف - من بارنت الى وزارة الخارجية في ١٥ مايو ١٩٤٢ .

السلع المصدرة أو لنوعية وقيمة السلع المنتجة التي كانت تشكل أكبر نسبة في الصادرات البريطانية الى مصر (٣٨) \* وكانت كل السلع التي يجرى انتاجها في بريطانيا وترد الى مصر تطبق عليها هذه التعريفه ، ولما كانت معاهدة ١٨٣٨ تفرض تعريفه قدرها ٥٪ على الواردات و ١٢٪ على الصادرات فقد وافق محدد على في النهاية على اقتراح بارنت الخاص بدفع رسوم الاستيراد والتصدير (٣٩) \* وبذلك أمكن التخلص من عبء كبيرة بصدد تطبيق حرية التجارة في مصر \* ولكن رغم الغاء بعض الرسوم التي فرضت على البضائع لصالح التجارة البريطانية فقد ظل التجار البريطانيون يدفعون رسوما تزيد على ما كان يدفعه رعايا روسيا الذين كانت المعاهدات تسمح لهم باستيراد بضائع الى داخل الأملاك العثمانية بعد دفع رسم الاستيراد البالغ ٣٪ وهو ما كان يدفعه التاجر البريطاني مقابل كل الرسوم الداخلية الأخرى \* وبعد الغاء هذه الرسوم والرسوم الداخلية كان الرعايا الروس يتمتعون بكل مزايا العائها

---

(٣٨) - بلغ رسم تصدير القطن اكثر من ٢٢٪ على حين بلغ رسم تصدير الصوف من ٢٠ الى ٢٥٪ وبن مخا ١٤٪ والقرطم ٥٠٪ وقرون الجاموس والبقر ٢٢٪ والافيون ١٥٪ وكل أنواع الحبوب ما يتجاوز ١٢٪ وبلغ رسم استيراد الاتمسة القطنية حوالي ٩٪ بدلا من ٧٥٪ .

نفس الملف - رقم ٢٠ من بارنت الى وزارة الخارجية في ٢٠ مايو ١٨٤٢ .

(٣٩) من نفس الشخص في ٢٦ مايو ١٨٤٢ .

دون أن يدفعوا مقابلا لذلك مما أعطاهم ميزة ٢٪ على الرعايا  
البريطانيين (٤٠) .

كما طبق نظام الاحتكار على السودان الذي ظل تحت  
الإدارة المصرية بعد عام ١٨٤١ طبقا لفرمان خاص منح لمحمد علي  
الذي سبق أن رأينا أنه كان منذ البداية قد اقترح على تجار  
معينين أن يبيع لهم محاصيل القطن والقمح في مصر والسودان  
مقابل الأموال التي يدفعونها له بين وقت وآخر وأن يسلم هذه  
المحاصيل بثمان أقل من سعر السوق . وكان معنى هذا احتكار  
محمد علي لمحاصيل مصر والسودان وأن يكون التجار  
القليلون الذين يحصلون على هذا المحصول هم البائعون  
الوحيدون له ، وكان من المفهوم أنه سيتقدم ما لا يزيد على ستة  
تجار ، ومعنى ذلك فرض احتكارين مما جعل من المستحيل أن  
تتنافس هيئة التجار في شراء أو بيع السلع لمن امتلكوها بهذه  
الوسائل . وقد يجوز القول بأن الوالي بتنظيمه هذه الشركة  
من المشترين قد تهرب من وعده بتنفيذ بنود معاهدات  
الامبراطورية العثمانية مع الدول الأجنبية . وهكذا اتضح أن  
الاجراء المقترح كان شديد الوطأة على التجارة العامة وعلى  
التجارة البريطانية بالذات وذلك على اعتبار أن المحتكرين لن  
يعجزوا عن أن يبيعوا لمواطنيهم وغيرهم بأعلى الأسعار في الوقت

---

(٤٠) الملف ٨/١٤١ روبرتسون الى بارنت - أول مارس ١٨٤٣ .

الذى تعترضهم فيه منافسة في السوق العام (٤١) . وفي مارس ١٨٤٢ أعلن بوغوص بك وزير التجارة والشئون الخارجية في مصر أن الوالى قد أصدر أوامره الى حاكم سنار بأن يطلق العنان للتجار بسلع البلاد من الحنة والصمغ والعاج والجلود ونبات السنا . وصدرت في نفس الوقت أوامر من الوالى لنفس الحاكم بشراء كل هذه السلع لحسابه مما كان يعنى عودته الى سياسة الاحتكار وتطبيقها لمصلحته الخاصة (٤٢) .

ومن الطبيعى أن تنجح كل منتجات سنار الى مخارج لتجنب الأرباح الطائلة التى سعى الوالى المحتكر الى الحصول عليها - وكانت أهم هذه المخارج ميناء مصوع وسواكن الواقعان على الساحل الغربى للبحر الأحمر . ولما كان محمد على مصمما على تحقيق هدفه بكل الوسائل الممكنة فقد حصل من الباب العالى على حكومة المدينتين مما جعله يفلق كل المنافذ أمام منتجات سنار ويحمل تجار الصمغ الأوروبيين في جدة وغيرها على الاعتماد عليه في الحصول على هذه السلعة (٤٣) . وكان وضع الوالى في السودان أضعف منه في

---

(٤١) الملف ٧/١٤١ - رقم ٢٦٤ من بولسنبى الى بالمرستون ق

٣ أغسطس ١٨٤١ .

(٤٢) ٢٠٩/١٩٥ - باوتت الى كاتنج في ٦ ابريل ١٨٤٢ - أيضا ٧٠٨/٧٨

رقم ٤٩ من مرى الى بالمرستون في ١٠ أغسطس ١٨٤٧ .

(٤٣) ١٠٨/٧٨ رقم ١٤ من مرى الى كولى في ١٥ يولييه ١٨٤٧ .

مصر : فعلى حين أنه كان يحكم مصر على أساس وراثى فقد عهد اليه بباشوية سنار برغبة السلطان ورضاه ، خاصة وقد نص فرمان على كونها باشوية منفصلة لا ينطبق عليها مبدأ الوراثة . وقد أدى هذا الى احتجاج كل من بريطانيا وفرنسا والنمسا فى كل من القاهرة واستانبول . وفى يونية ١٨٤٨ أصدر الصدر الأعظم فرمانا (٤٤) الى والى مصر يأمره فيه بأن يمتنع عن احتكار منتجات سنار . بل ان القنصل البريطانى العام - مرى Murray - ذهب الى أن تردد الوالى أو امتناعه عن تطبيق المعاهدة من شأنه أن يستتبع حث الباب العالى على خلع باشوية سنار على موظف يرسل من استانبول رأسا واسترجاع الباب العالى لحكومة مصوع وسواكن بعد وفاة محمد على (٤٥) . وفى نوفمبر من نفس العام وافقت الحكومة المصرية على وضع حد لاحتكار سنار بعد ثلاثة أشهر (٤٦) . وصدرت الأوامر الى حاكمى مصوع وسواكن بالألا يعرقلا تصدير الصموغ والسنا التى يمتلكها التجار البريطانيون (٤٧) .

- 
- (٤٤) ١٥/١٤١ ( نسخة ) الصدر الأعظم الى باشا مصر بتاريخ ٦ يونية ١٨٤٨ .  
 (٤٥) ١٦/١٤٢ -- رقم ٢٧ من مرى الى مالرستون فى ٣ يوليه ١٨٤٨ .  
 نوفمبر ١٨٤٨ .  
 (٤٦) ٧٦٥/٧٨ - من وزارة الخارجية البريطانية الى مرى بتاريخ أول نوفمبر ١٨٤٨ .  
 (٤٧) ٧٥٧/٧٨ - من اوتين بك الى مرى فى أول يوليه ١٨٤٨ .

وفي عهد عباس الأول ألغيت احتكارات سنار وأطلقت حرية  
تجارة الصمغ والسنا - وبقية منتجات هذا الاقليم \* كما  
أعاد عباس سواكن ومصوع الى الدولة العثمانية بسبب بعدهما  
عن مصر ولأن محمد على لم يحصل عليهما الا للسيطرة على  
المخرج الشرقي الوحيد لمنتجات سنار والسودان - وقد وضعت  
هاتان المدينتان منذ ذلك الوقت تحت سلطة باشا جدة \*  
ولم تتردد الحكومة البريطانية في تعيين ممثل قنصلى في  
الخرطوم بإمكانه حماية التجار البريطانيين الذين ازداد نشاطهم ،  
منذ إلغاء احتكار الصمغ والسنا ومنتجات سنار الأخرى ، في  
الاتجار بهذه السلع (٤٨) \* وفي عهد عباس الأول تدهورت التجارة  
الداخلية والخارجية وكانت النتيجة هي أن كميات ضخمة من  
المنتجات والحبوب والقطن تكدست في شون الحكومة لعدم  
صلاحيتها للبيع بثمن يبلغ ٦٠٪ من القيمة التي كانت عليها في  
العام السابق - وفي الوقت الذي كانت فيه الموارد الاتجاجية  
في مصر تعاني من الشلل استمر الاتفاق على بناء القناطر الخيرية

---

(٤٨) ( ١٧/١٤١ رقم ٤ وزارة الخارجية الى مرى في ١٢ مارس ١٨٥٠ ) \*  
في الوقت الذي كانت فيه المدينتان تخضعان لحكام يمينهم الباب العالي رأسا  
نشطت التجارة الى حد كبير بينهما وبين جدة ونومساي وأماكن أخرى قام بالاتجار  
فيها نجار معظمهم بريطانيون وانجليس - هينود ( ١٦/١٤٢ - رقم ٦ من مرى  
لكانج في ١٨٤٨/٦/٢٥ ) \*

والترع والتحصينات وغيرها من الاستعدادات الحربية (٤٩) .  
وكانت الخزانة خاوية وكانت كل ادارات الخدمة العامة مفلسة  
باستمرار وكانت القسوة الشديدة لاتزال تصطنع في ارجاع  
الفلاحين الى شفاك الوالى بعد أن دفعهم سوء المعاملة والعوز  
الى مبارحتها (٥٠) . وحين وجدت الحكومة المصرية آلافك  
من تطبيق بنود المعاهدات وافقت على إلغاء الرسوم التي كانت  
مفروضة حتى ذلك الوقت على بولاق ، ميناء القاهرة (٥١) .

وفي عهد عباس جرت تغييرات كثيرة أثرت في تجارة مصر  
وعلاقتها الخارجية - فقد طبق دون هوادة أمر صدر لأول مرة في  
عهد محمد على وبمقتضاه كان لايمكن تنفيذ أن اتفاق لشراء  
المحصول من الفلاحين عن طريق الدفع مقدما ، وذلك بالموافقة  
الضمنية من جانب القناصل العامين . وكان كل ذلك في البداية

---

(٤٩) ٦٢٣/٧٨ - بارنت الى بالمرستون في ١٧/٦/١٨٤٨ رسالة اخرى  
مؤرخة ١٨٤٨/٧/٣ .

(٥٠) نفس الملف - بارنت الى كاننج في ١٤/٣/١٨٤٥ .

(٥١) ٣٣٠/١٩٥ - رقم ٢٦ من مري الى بالمرستون في ١٩/٣/١٨٤٩ .  
جرت محادثة بين مري وأرتين . وقد رد مري على ملحوظات أرتين عن صعوبة  
وضع حد للتهرب بأن مثل ذلك يحدث بدرجة أكبر في إنجلترا، وفرنسا وأن من  
واجب الحكومة أن تواجه هذه الصعوبات وتغلب عليها باقامة مراكز جمركية  
تتميز بالكفاءة في مدن وموانئ الحدود لا في أماكن بالداخل لما يتضمنه هذا  
من خرق للاتفاقيات التجارية القائمة .

(٥٢) ٣٣٠/١٩٥ - رقم ٦ من مري الى كاننج بتاريخ ١٢ مارس ١٨٤٩ .



موضعا لبعض الشكوى من جانب صغار التجار والوكلاء الذين اعتادوا على زيارة الأقاليم لشراء كميات صغيرة من المحصول كانوا يقومون ببيعها في أسواق القاهرة والاسكندرية ، على أن مثل هذه الشكاوى لم تقدم فيما بعد - وقيل ان عهد عباس الأول الذى تميز بالتساهل أدى الى اهمال هذا القانون الذى لم يبلغ على أى حال ، وكان هذا يجرى فى بعض المناطق بعلم من الحكام المحليين كما وجد نظام يقوم على التهرب كان يتبع بنجاح بوجه عام ، وكان الشخص الذى يتقدم بعروض الى الفلاحين بشأن محصول لم يتم جنيه يحصل من المزارع ، بدلا من عقد بالصورة المألوفة ، على كمبيالة مالية بمبلغ لا يشتمل فقط على النقود التى دفعها بل أيضا على مبلغ آخر من شأنه ، حسب تقديره ، أن يواجه ثمن السلعة فى الوقت المتوقع للتسليم ، وكان ثمة اتفاق شفهي بين الأطراف ، وحين كان الفلاح يسلم المحصول كان مندوب التاجر يعفيه من تعهده المالى ، واذا ما عجز عن تسليم المحصول كان بالامكان أن يطلب من المحكمة المحلية تنفيذ الشروط المالية للعقد التى كانت تشتمل على ربح كبير ، وكان يبدو أن هذا الاجراء شاذ رغم كونه مضمونا ، وكان بوجه عام مفيدا لحماية الأطراف المستعدة للتقدم بعروض للمزارعين .

أما الوكالات الكبيرة فلم تتعرض لأى ضرر طالما كانت الحكومة تبيع محاصيلها بالمزاد العلنى . وكانت هذه المزايدات

تجرى بطريقة عادلة ، وفي فترات منتظمة أيا كانت حالة الأسواق .  
وعلى حين أن محمد علي كان يبيع لحوالي اثنتى عشرة وكالة  
معظمها يونانية وفرنسية كانت تبيع لتجار آخرين بأسعار عالية ،  
فإن عباس كان يبيع بالمزاد (٥٢) \* وقد ثار التجار واحتج قناصل  
النمسا وسردينيا وتسكانيا على ما اعتبروه محاولة من جانب  
الوالي لاحتكار كل المحصول وعرقلة اتصال التجار بالفلاحين  
بهدف جعل منافسة الأجانب له أمرا مستحيلا (٥٣) \* وكان في  
الواقع قد أصدر منشورا دوريا يقضى بسيان النظام الذى  
كان يطبق حتى ذلك الوقت من حيث تسليم المزارعين محاصيلهم  
ليوت تجارية قبل أن يدفعوا الضرائب المستحقة للحكومة  
وأن أى أشخاص يشترون من مزارعين مدائين نتيجة لذلك قد  
يتعرضون لالغاء صفقاتهم ومصادرة بضائعهم (٥٤) ، مما يعنى  
العودة الى نظام الاحتكار القديم وخرق المادة الثانية من  
معاهدة ١٨٣٨ \* وقد احتج قنصل بريطانيا العام - بروس -  
على هذا الاجراء وأصدرت الحكومة البريطانية تعليماتها الى  
سفيرها في استانبول لكى يبلغ الحكومة العثمانية بأن النظام  
الذى يطبقه الوالى يشكل بصريح العبارة خرقا للمعاهدة (٥٥) \*

(٥٢) ١٦٦/٧٨ من والى الى باجت بتاريخ ٧ يناير ١٨٥٣ .

(٥٣) نفس الملف - رقم ٧ من باجت الى رسل بتاريخ ١٨٥٣/١/٣٠ .

(٥٤) نفس الملف - رقم ٦ من باجت الى رسل بتاريخ ١٨٥٣/١/٨ .

(٥٥) ١٠٣٤/٧٨ مسودة رقم ٣٦ من وزارة الخارجية الى بروس بتاريخ

١٨٥٤/٧/١٦ .

يضاف الى ذلك أن عباس أصدر أمرا في سبتمبر ١٨٥٣ يقضى بتجريم تصدير الحبوب بحجة أن فيضان النيل قد دمر نسبة كبيرة من المحصول • وازاء احتجاج القناصل وافق الوالى على تصدير الكميات الموجودة فى الاسكندرية • ورغم سماحه بنقل الحبوب الى الاسكندرية فان الحكومة لم تسمح بالتصدير الحر ولم يفرج عما تمتلكه الحكومة أو الوالى لكى يشق طريقه الى السوق (٥٦) • كما أصدر عباس أمرا ينص على أن تتوقف السفن المحملة بالحبوب فى العطف - حيث يلتقى النيل بترعة المحمودية • وقد احتج بروس على ذلك وبأشر الضغط من أجل تطبيق المعاهدات وصرح للسلطات المصرية بأن الوالى سيضع نفسه فى مركز حرج بحكم أنه سيجعل ادارته المنفصلة لمصر لا تنمى مع تشدد الباب العالى فى تطبيق معاهداته • وقد قيل ان الوالى قد اتبع هذا الاجراء لكى يستولى على المحصول بثن بخصر على أن يبيعه بعد ذلك بما يعود عليه بالفائدة ، على حين رأى آخرون على معرفة جيدة بالبلاد أنه كان يخشى أن تطلب منه تركيا أن يزودها بكمية كبيرة من الحبوب - وقد ساد الاعتقاد بأنه كان يرغب فى الحصول على السلاح بحجة المحافظة على الأمن موفرا بذلك حجة لرفض طاعة الأوامر (٥٧) • وقد صرح عباس بأن الحكومة العثمانية طلبت من مصر أن

(٥٦) ١٠٥٣/٧٨ من بروس الى كلارندون بتاريخ ١٦/٢/١٨٥٤ •

(٥٧) نفس اللاف - رقم ٢ من بروس الى كلارندون بتاريخ ٢/٢/١٨٥٤ •

تزودها بالحبوب ووعده بأن تدفع تسعين قرشا في مقابل أردب القمح حين يتم تسليمه الى استانبول (٥٨) . ولما كان شديد اللؤم ولم يكن على استعداد لبذل التضحيات في سبيل الحرب الناشبة بين تركيا وبريطانيا وفرنسا من ناحية وبين روسيا من جانب آخر ، فانه استحوذ على كل قطن البلاد ولم يقيم بيعه مما يدل على حرصه على أن يشاع عنه أنه يواجه صعوبة في الحصول على الأموال اللازمة للاصلاحات الداخلية التي كان يقوم بتنفيذها وأنه لم يدخر وسعا في مساعدة الباب العالي ، وذلك رغم أنه لم يتبين أن موارد مصر وأحوالها كانت معروفة تماما في استانبول (٥٩) . ولما وجد عباس أن اليونانيين هم المشترين الرئيسيون لمحاصيل المناطق الداخلية في مصر فقد قرر طردهم جميعا من البلاد . وقد اشتد حاكم الاسكندرية في تنفيذ الأوامر الصادرة اليه بهذا الصدد ، وحين بدا أن احتجاجات الدول الحليفة لم تكن موضع اهتمام بعد أن طالبت باطالة أمد المهلة لصالح اليونانيين الذين كان من المحتمل أن تتعرض تجارتهم واسعة النطاق مع البيوت التجارية لخسائر كبيرة فقد تم منح

---

(٥٨) ١٠٣٦/٧٨ رقم ٢٨ من بروس بتاريخ ١٨٥٤/٦/١٦ .  
(٥٩) نفس الملف رقم ٣٤ من بروس بتاريخ ١٨٥٤/٧/٥ . ولم يستلم عباس رسالة الباب العالي بصدور الاجراءات التي اتخذها بصدد احتكار بيع الحبوب ، وذلك نتيجة لوفاته المفاجئة ( ١٨/١٣٢ ) - رقم ٧ من بروس الى ستراتفورد دي دوكليف ( ستراتفورد كاننج في السابق ) بتاريخ ١٨٥٤/٨/٤ .

معظمهم الحماية الأجنبية • وكان عباس الذي سعى الى احتكار  
محاصيل البلاد قد وجد في التجار اليونانيين عقبة كأداء وقرر  
التخلص منهم (٦٠) ، خاصة وأن نشاطهم ومعرفتهم بلغة  
الأتراك وعاداتهم قد جعل منهم منافسين أقوياء • الا أن السفير  
البريطاني في استانبول أصدر منشورا دوريا طالب فيه بالسماح  
للعرايا اليونانيين العاملين في البيوت التجارية البريطانية أو في  
خدمة الرعايا البريطانيين بوجه عام بالبقاء على مسئولية من  
يقومون بالعمل لحسابهم أيا كان نوعهم وبأن تزودهم السلطات  
العثمانية « ببطاقة أمان » وذلك باستثناء الحالات التي يثير فيها  
سلوك أحد الطرفين شكوى خاصة من جانب البوليس (٦١) •

وكان موقف عباس من اليونانيين مرتبطا بسياسته الداخلية  
العامة • فقد كانت الأملاك التي ورثها أبناء محمد علي و ابراهيم  
عبارة عن عهد وشفالك ( بمعنى أنها كانت في السابق في أيدي  
المساليك ) - وكان حائزو الشفالك لا يدفعون أى ضرائب  
للحكومة ؛ ولم يستول عليها عباس استيلاء مباشرا ، ولكن  
لما كان يسعى الى الحاق الضرر بجائزها فقد اتى تحقيق  
هدفه على الوجه التالي : فقد سعى حكام الأقاليم الى حرمان  
الملاك من الأموال اللازمة للزراعة بحيث ان الفلاحين كانوا

---

(٦٠) ١٠٣٥/٧٨ - من بروس الر. كلاندون بتاريخ ١٦/٥/١٩٥٤ •

(٦١) نفس الرسالة •

يزرعون الأرض لحسابهم حين يجدونها غير مزروعة - ومن الناحية القانونية كان يطلب منهم أن يدفعوا للمالك مبلغا يساوى قيمة ضريبة الأرض ولو أن تعليمات صدرت الى الحكام لكيلا يلبوا مطالب المالك الذى لم يعد يحصل على أى دخل منها مما اضطره الى تركها بعد وقت قصير \* وكان ابراهيم باشا قد خلف ما ينوف على ٧٠ قرية اعتبرت عهدا وقام عباس بوضع يده عليها وبذلك حرم منها أبناء ابراهيم \* وكان شاغل العهدة يقدم رأس المال ويقوم بزراعة السكر والقطن التى تتكلف كثيرا من النفقات \* وكان مشايخ القرى الأغنياء يلعبون فى زراعة نواحيهم دورا لا يقل عن ذلك أهمية \* وبعد أن تضعفت أحوالهم أدت اجراءات الحكومة الخاصة بالضغط عليهم وارغامهم على الاستدانة الى تمكينها من الاستيلاء على أموالهم الوفيرة \* وتدهورت الزراعة التى كانت مصدرا لأرباح طائلة بعد أن حرمت الأراضى من خدمات الرأسماليين فى الوقت الذى لم تفعل فيه الحكومة شيئا لملاء الفراغ \* ولم يقم الوالى باستثمار الأراضى الأقل خصوبة مما أدى الى لجوء الفلاحين المحرومين من مساعدة الرأسماليين المحليين الى عملاء البيوت التجارية الذين كانوا يقدمون لهم سلفا بضمائم المحاصيل \* ولما كان عباس شديد الرغبة فى حرمانهم من هذا المصدر فقد سعى الى إعادة العمل بمنشور دورى كان محمد على قد أصدره ونص على تحريم بيع المحاصيل غير الناضجة ، والى

ارهاب هؤلاء العملاء الذين كان بإمكانهم تشجيع الفلاحين على عدم التعامل مع مندوبي الحكومة والاستناد الى الامتيازات الأجنبية لكي يدافعوا عن أنفسهم في مواجهة قسوته (٦٣) \*

وحين توفي عباس تركت مالية الدولة مدينة بما يقارب مائة مليون فرنك في الوقت الذي كانت فيه خزانه الدولة خاوية تماما (٦٣) \* وقد أبدى خلفه محمد سعيد باشا بعض الميول الليبرالية (٦٤) كما أبدى تسامحا مع الأجانب وصل الى حد الضعف \* ومرجع بعض هذا التسامح أنه كان يطمح الى تحقيق استقلال مصر \* ولما كان تفوق العناصر الإسلامية في البلاد - في رأيه - يقوى قبضة السلطان على مصر فقد اعتقد أن اضعاف هذا النفوذ وتقوية النفوذ المسيحي والأوروبي من شأنهما زعزعة سلطة السلطان وتمكينه هو من الحصول على أنصار وحماة له (٦٥) \* كما لم يتصف بالتعصب الذي تميز به عباس وكان شديد الحماسة للأخذ بأي اقتراحات تستهدف تحسين أحوال البلاد (٦٦) \* وكان في نظر من يعرفونه رجلا طيبا

---

(٦٢) ١٠٣٦/٧٨ - رقم ٢٤ من بروس الى كلارندون بتاريخ اول

يونية ١٨٥٤ .

A. Sammerco, Les Règnes de Abbas, de Said et  
d'Ismaïl (Rome, 1935), P. 8. (٦٣)

J.C Mc Coan, Egypt as it is (London, 1877), P. 81 (٦٤)

(٦٥) ٧٢٢/١٩٥ - رقم ٧ من بروس الى رسل بتاريخ ١/٥/١٨٦٣ .

(٦٦) ٤١٢/١٩٥ - رقم ١٥ من بروس الى ردكليف في ١٧/٧/١٨٥٥ .

حسن النية وان تكن حالته الصحية وقلة نشاطه لا تسمحان له بأن يكون له تأثير دائم على أحوال مصر خلال فترة حكمه (١٧) .

وكان سعيد منذ بداية حكمه يرغب في التخلص من الطابع المرنيتلى الذى سبق لأسلافه أن فرضوه ولهذا لم يضع عقبات في وجه التجار الراغبين في التعامل مع الفلاحين في الداخل . وكان تعليق قنصل بريطانيا العام أن تنفيذ النظام من شأنه أن يثرى الفلاح وأن انشاء وكالات أوروبية سيستتبع في المستقبل اتباع مفاهيم ادارية أكثر استنارة في الداخل وتأمين المزارع على أملاكه ، خاصة وأن عدم توفير الأمن حتى ذلك الوقت كان يؤخر تنفيذ كثير من خطط الإصلاح في مصر . وأضاف أن سعيدا ذو صفات طيبة وأن أفكاره الإصلاحية معقولة ولو أن طبيعته كانت تتضمن بعض العيوب التي تجعل تحقيقها أمرا صعبا - إذ كانت تستهويه المشروعات الضخمة دون أن يتصف بقوة التحمل والعزيمة اللازمين لتنفيذ الإصلاحات الاجتماعية (١٨) .

وقد عمد سعيد الى الاعتراض على كل ما قام به سلفه مما كان يتناقض تماما مع كل ما اتناه من اصلاح الادارة . ويبدو أنه كان يرى أن أحسن وسيلة لاعادة تنظيم مختلف:

---

Dicey, Story of the Khedivate (ondon, 1890), P. 222.

(١٧)

(١٨) ٤١٢/١٩٥ . بروس الى ردكليف في ٨/٢/٨٥٥ .



الادارات التي كانت قد تدهورت كثيرا في عهد عباس هي  
الغاؤها كلية وتبرير ذلك بخفض النفقات وضرورة الوفاء  
بالديون التي خلفها عباس ولو أنه سار على نقيض سياسة  
سلفه القائمة على الاعتماد على العنصر العربي على حساب  
العنصر التركي - وقد أخبر قنصل بريطانيا العام بأنه يستهدف  
ألا يكون لديه من الضباط سوى الأتراك خاصة وأنه كان  
يعتقد أن العرب لا يصلحون لأي وظيفة عليا مما كان ينذر  
بوقوعه في أيدي أنصار فرنسا الذين اعتبرهم أولى بالرعاية  
نتيجة لاضطهاد عباس لهم خاصة وأنه فتح أبوابه لهم وهو ما لم  
يفعله مع انتجار البريطانيين (٦٩) .

وقد ترتبت على كل ذلك سلسلة من الاصلاحات اللبرالية  
أهمها إلغاء الرسوم الجمركية الداخلية وكل الاحتكارات  
وبذلك تحققت حرية التجارة ولم تعد توجد عوائق تعترض  
الأشخاص الذين يتجرون في الداخل مع المنتجين المحليين .  
وكانت النتائج مواتية جدا للملاك ، واشتد الطلب في الاسكندرية  
على الصادرات مما أدى الى ارتفاع أسعار الحبوب في المناطق  
النائية حتى أسوان خاصة وقد ألغى جمرك بولاق الذي طالما  
كان موزعا للسخط والاحتجاجات عديمة الجدوى ، كما ألغى

---

(٦٩) ٤١٢/١٩٥ بروس الى وزارة الخارجية في ١٦/١٢/١٨٥٤ .

النظام السيء الخاص برسوم الدخولية (٧٠) • الا أن الغناء نظام الاحتكار بهذا الشكل قد أفسح المجال أمام المغامرين الأجانب في حين أن الأشخاص الذين نالوا حظوة الوالى قد اهتموا بالسعى الى الحصول على امتيازات لهم دون غيرهم بصدد تنفيذ مشروعات لهم يكن لمصر سابق عهد بها • وكان لا بد لهذا النظام أن يكون شديد الضرر لأنه منح مزايا لأشخاص كانوا قد نالوا حظوة الوالى وبالتالي فانه تضمن قيودا على اصلاحات المستقبل وعرض شعب مصر وتجارها للأسعار التى كان هؤلاء المحتكرون يسعون الى فرضها (٧١) •

وأثبت ضعف سعيد شدة اضراره برشاء مصر لأنه أفسح المجال لتدخل القناصل الأجانب الذين حقق كثير منهم أرباحا عن طريق استغلال مناصبهم بأساليب غير شريفة • وكان القناصل العامون الذين يتقاضون أجرا هم قناصل فرنسا والنمسا واليونان وبروسيا وبريطانيا واسبانيا والولايات المتحدة وسردينيا وروسيا • أما القناصل الذين لم يتقاضوا أجرا وكانوا يمارسون التجارة فهم قناصل هولندا وبلجيكا وتسكانيا وناپولى والدانمرك وعصبة الهانسا والبرتغال والسويد • وكان معظم القناصل الذين لا يتقاضون أجرا من مواطنى البلاد التى

(٧٠) ٥٢٢/١٩٥ - رقم ٨ من بروس الى وزارة الخارجية فى ١٨٥٧/٢/٢ •

(٧١) ١٣٣٨/٧٨ - رقم ٢١ من بروس فى ١٨٥٧/٢/١٣ •

يمثلونها - وعلى سبيل المثال كان قنصل نابولي مشرقيا عاديًا جمع ثروة \* وكان بعض القناصل قد اشتروا وظائفهم لاستغلال الفرص التي توفرها للحصول على صفقات الحكومة دون أن يسبق لهم تلقي أى تعليم خاص يمكنهم من الاضطلاع بالواجبات القضائية المطلوب منهم القيام بها \* ومن الطبيعي أن يكون هدفهم هو اقامة علاقات طيبة مع الحكومة المحلية واستغلال سهولة اتصالهم بالوالى باعتبارهم قناصل عامين (٧٢) \* وترتب على كل ذلك أن لعب هؤلاء القناصل دورا حاسما في فتح أبواب مصر للرأسمالية الغربية النامية ولهجرة الأوروبيين (٧٣) الى البلاد ، كما قاموا بالضغط على الحكومة المصرية للحصول على تعويضات عن خسائر كانت وهمية في كثير من الأحيان \* وقد سجل قنصل بريطانيا العام رأيه حول الدور الذى لعبه أمثال هؤلاء القناصل على الوجه التالى : « تتفق نظرة هؤلاء السادة الى المسائل العامة مع يفيد مصالحهم أكثر من اتفاقها مع سياسة الحكومة التى يمثلونها ، ففي بداية عهد سعيد في الوقت الذى كانت تناقش فيه فوائد وضع حد لسياسة احتكار الحكومة للمحاصيل،

(٧٢) ١٢٢٢/٧٨ - رقما ١٢ و ٢١ من بروس الى كلارندون بتاريخ

١٨٥٦٥/٥ و ٤/٤

(٧٣) ولم يدم وجود احصائيات دقيقة في مصر حتى عام ١٨٩٧ يقدر

ميسوي عدد الاجانب في مصر في عام ١٨٣٦ بثلاثة آلاف وفي عام ١٨٧٨ بأكثر

من ثمانية وستين ألفا وفي عام ١٩٠٧ بمائتي الف وواحد وعشرين ألفا .

Issawi, Egypt in Revolution (London, 1963), P. 43.

وهي السياسة التي سعى عباس باشا مؤخرا الى اعادة تطبيقها ،  
كان من أشد معارضي وجهات نظره الليبرالية فنصل بلجيكا  
العام الذي لاشك أن تصريحاته لم تكن تتسجم مع سياسة  
الحكومة البلجيكية الخاصة بمثل هذه الأمور » (٧٤) .  
وكان من رأى بروس أن مصالح الدول الأجنبية وتركيا ذاتها  
كانت تتطلب عدم خلع الصلاحيات القضائية واسعة النطاق التي  
كان يتمتع بها القناصل الذين يمثلون الدول الأجنبية في المشرق ،  
الا على أشخاص يشتغلون بالتجارة وأن دخولهم في سلك  
وظائف الدولة التي ينتمون اليها وتلقيهم مرتبات كافية مما يوفر  
ضمانا كافيا لاستقلاليتهم وأداء مهامهم بوحى من  
الضمير (٧٥) .

وكان سعيد تركيا - وكان من عادة الأتراك ، في الوقت  
الذي يتبينون فيه أن ممثلي الدول الأجنبية يشتركون في المطالبة  
بقسط من المكاسب الناتجة عن انتهابهم للمواطنين ويساندون  
ادعاءات ناتجة عن صفقات غير قانونية أن يعتبروهم على صلة  
بالماسرة الذين لم يكن لهم من هدف سوى انتهاب الأتراك ،  
وبطبيعة الحال كانوا يدركون أن أحسن وسيلة للحصول على  
مساندة أى قنصل عام وللتوصل عن طريقه الى كسب ثقة

---

(٧٤) ٢٠/١٤٢ - رقم ٦ من بروس الى وزارة الخارجية بتاريخ  
١٨٥٧/٣/١٤ .  
(٧٥) نفس الملف - رقم ٦ من بروس أيضا بتاريخ ١٨٥٧/١/٢٤ .

الحكومة التي يشلها هي أن يخلعوا على مواطنيهم نسبة مبالغا فيها من المزايا على حساب مصلحة التجارة والحكومة ذاتها (٧٦) . لهذا كله اعتبر سعيد السلك القنصلى عدوا طبيعيا له بحكم أن أعضاءه لم يكن لهم من هم سوى ابتزازه بأى بأى وسيلة . ورغم ذلك فلم يكن بإمكانه مقاومة الضغط الأوروبى المتزايد على مصر الذى استشرى بعد الانهيار النهائى لنظام الاحتكار فى عهده . يضاف الى ذلك أن الأشخاص الذين نالوا حظوته كانوا يحتكرون المزايا لتنفيذ بعض متطلبات الصناعية وكانوا يبيعونها لشركات تقوم بتصنيعها وبالتالي كانوا يجورون على سكان مصر ويعمدون الى التضييق على سلطة الوالى حتى يكونوا هم بديلا لها بحيث يحلون محل الجنس التركى فى مصر (٧٧) . والنتيجة هي أن التجارة لم تكن تمارس على أساس سليم بحكم أن التجار كانوا يستثمرون رءوس أموالهم فى سندات على خزانة الحكومة كانت تدر ربحا يتراوح بين ١٥ و ١٨٪ - وحتى لا تتأثر سمعة سعيد فانه كان يدفع قيمة السند حين يحل موعده وقد عمد كل الأشخاص الذين كانت لديهم أشياء ذات قيمة الى الاستغناء عنها حتى يتسنى لهم استثمار هذه السندات وان يكن هذا لم يؤثر على حجم

---

(٧٦) ١٢٢٢/٧٨ - رقما ١٢ و ٢١ اللذان سبقت الاشار اليهما .

(٧٧) ٢٠/١٤٢ - رقم ٢٢ من بروس الى كلارندون بتاريخ ١٦/٨/١٨٥٧ .

الواردات والصادرات التي ازدادت (٧٨) \*

وهكذا انفسح المجال لجعل مصر وحدة زراعية كولونيالية في نطاق النظام السياسى - الاقتصادى العالمى (٧٩) وذلك بعد انهيار خطط محمد على وهو ما نستشف منه أن عدم حصول مصر على الاستقلال الذاتى كان يمثل احدى العفبات الرئيسية التى اعترضت تطور البلاد الاقتصادى \* فقد سبق أن رأينا أن رسوم الصادر والوارد كانت تحدها الاتفاقيات المعقودة بين الحكومة العثمانية والدول العظمى فى حين كان لايمكن فرض أى ضرائب مباشرة على الأجاب دون موافقة حكوماتهم وذلك نتيجة للامتيازات الأجنبية \* وكان محمد على قد نشط الزراعة والصناعة والتجارة ودافع عن استقلال مصر الذاتى وأفاد من الخبراء والفنيين الأوروبيين الذين شجعهم على الاستقرار فى مصر ، فى الوقت الذى عرقلت فيه احتكارات الحكومة نشاطات الأجاب فى مصر بحيث أن التوسع فى استيراد رأس المال الأجنبى لم يتم الا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وذلك فى أعقاب افتتاح قناة السويس وظهور الحاجة الملحة الى تمويل زراعة القطن واعداده للتصدير \*

وكان عباس الأول يقاوم كل أشكال النفوذ الأوروبى

---

(٧٨) ١١٢/١٤٢ من كلكهون الى رسل فى ١١/١١/١٨٦١ .

(٧٩) عيسوى ، المرجع السابق ، ص ١٩ و ص ٢٤ .

ب - واذا ما كان قد تميز بكرهه للأجانب الذين انزل عن مجتمعاتهم فالما كان يستهدف بذلك التصدى للتغلغل الغربى •  
أما عصر سعيد فانه يسجل مرحلة انتقال فى تاريخ مصر - فشخصيته وسياسته ، فى الوقت الذى شهد نمو الرأسمالية والثورة الصناعية فى أوروبا ، كاتنا مسئولتين عن الديون وتنفيذ مشروع قناة السويس الذى تحمات الحكومة المصرية معظم تكاليفه وعن الغزو السلمى الأوروبى لمصر • وقد ظهرت نتائج كل هذه التطورات خلال الجيل التالى لعصر سعيد واستشرى فى عصر اسماعيل ووصلت قمته حين خضعت البلاد للاحتلال البريطانى (٨٠) •

---

(٨٠) راجع حول هذه التطورات ودلالاتها كتاب « فى اصول المسألة المصرية » تأليف صبرى وحيدة ( القاهرة ١٩٥٠ ) •





الموضوع الثالث

---

اوراق حكيان



لم يجز حتى الآن تفويم أوراق حككيان (١) التي كان هيوارث دن أول من أشار إليها في كتابه :

In troduction to th<sub>١</sub> History of Education in Modern Egypt (London, 1939).

وتلقى هذه الأوراق أضواء جديدة على أوضاع مصر خلال الفترة الممتدة بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٦٣ والتي لم تحظ بالاهتمام الكافي من جانب المؤرخين ، كما تحتوي على سيرة حككيان الذاتية وانطباعاته الخاصة خلال الفترة التي قضاها في إنجلترا ما بين عامي ١٨١٨ و ١٨٣٠ . وبالامكان مقارنة خواتمه بانطباعات رفاة الطهطاوي عن الفترة التي قضاها في فرنسا في الوقت الذي كان فيه حككيان يدرس في إنجلترا . كما تحتوي أوراق حككيان على معلومات ورسوم هامة تتعلق بالتنقيبات الأثرية التي تمت تحت اشراف الجمعية الملكية البريطانية ، بأوضاع البلاد الاجتماعية التي لمسها خلال اشتراكه في هذه التنقيبات .

وقد ولد يوسف حككيان في استانبول (حوالي عام ١٨٠٧) في أسرة أرمنية كاثوليكية . ومنذ طفولته كان والده يجلم بأن يتلقى ابنه تعليمه في إنجلترا ، وتحققت هذه الأمنية حين

---

(١) المتحف البريطاني ( المخطوطات الاضائية Add. MSS ) المخطوطات

توجه الى مصر وأصبح أحد تراجمة محمد علي \* وحين قرر محمد علي في عام ١٨١٧ ارسال عدد كبير من أبنائه وموظفيه الى باريس لكي يتلقوا تعليمهم هناك ، انتهز والد حككيان الفرصة فطلب من محمد علي أن يرسل ابنه - الذي كان يقيم مع والدته في استانبول - الى انجلترا \* ولبي محمد علي هذا الطلب - وحين وصل حككيان الى دوفر لم يكن يعرف من اللغات سوى التركية (٢) واعتزته الدهشة التي عادة ما يتعرض لها شباب الشرق حين يواجهون أوروبا للمرة الأولى \* وفي انجلترا كان يشرف عليه صمويل بريجز الذي سبق له العمل بمصر حيث كان قنصلا عاما لبريطانيا - ولما كان حككيان كاثوليكيًا فقد تقرر الحاقه بكلية ستونيهيرست حيث ظل حتى عام ١٨٢٤ يدرس اللغة الانجليزية الى جانب المناهج السائدة في ذلك الوقت : اللغتان الفرنسية واللاتينية وغير ذلك ، وبعد أن أتم هذه الدراسات وصلته تعليمات ( في ١١ ديسمبر ١٨٢٤ ) من بوغوص بك يوسفيان ( يوسف ) وزير التجارة والشئون الخارجية في مصر تتضمن أمرا من محمد علي على تقضى بأن يكرس حككيان اهتمامه لدراسة آلات الغزل والنسيج من الناحيتين النظرية والتطبيقية الى جانب الاطلاع على كيفية بناء الطرق

(٢) المخطوطة رقم ٣٧٤٦٣ ، ص ٥٦٦ ، هذا رغم ان حككيان يذكر في سيرته الذاتية أنه قبل أن يبارح استانبول كان ملما باللغتين الامنية والفرنسية ( المخطوطة رقم ٣٧٤٤٨ ، ص ١٦٣ ) \*

## والكبارى والقنوت والأرصفة النهريية (٣) •

وفي أول مايو ١٨٢٥ شرع في تنفيذ أوامر محمد على الخاصة بهذه الدراسات • ثم صدرت اليه الأوامر بزيارة مصانع القطن في جلاسجو بقصد الاطلاع على أساليب الغزل والنسيج في اسكتلنده وماثسستر (٤) وهناك طفق يجمع المعلومات المفيدة عن عمليات تصنيع القطن •

وفي خريف ١٨٣١ عاد حكيان الى مصر بعد أن نسي لغته الأصلية نسيانا تاما مما أدى الى تزويد محمد على له بمترجم يساعده في مهامه التي واجه خلال اضطلاعها كثيرا من الصعوبات الناتجة عما اكتسبه من مفاهيم في انجلترا (٥) • ومهما كان الأمر فقد تم تعيينه مراقبا عاما لمصانع القطن في الحوض المرصود والخرنقش وبولاق والمبيضة ووضع تحت اشرافه عشرون من طلبة قصر العينى قام بتعليمهم مبادئ الهندسة والرياضيات والميكانيكا بمساعدة مترجم تقوم الحكومة بدفع راتبه • وفي عام ١٨٣٤ افتتحت مدرسة الهندسة في بولاق ثم ألحقت بها في عام ١٨٣٥ مدرسة المهندسين في القناطر الخيرية

(٣) المخطوطة رقم ٣٧٤٦٢ ، ص ٣١٧ - ٣١٩ •

(٤) المخطوطة رقم ٣٧٤٦٢ ، ص ٦٥٠ •

(٥) نفس المخطوطة ، ص ٥٠ •

التي كان بها ثلاثون طالبا (٦) كما ألحقت بها مدرسة المناجم بمصر القديمة (٧) وتم تعيين حككيان مديرا لمدرسة الهندسة الجديدة (٨) مما أتاح له الفرصة ليصبح عضوا بديوان التعليم الذي أنشئ في عام ١٨٣٦ (٩) . وفي أواخر الثلاثينات عين مديرا لمدرسة العمليات ، كما اشترك في انشاء « الجمعية المصرية » التي تأسست في عام ١٨٣٥ وكان من أهدافها تقديم خدمات للمسافرين الأجانب المارين بمصر وكانت لها مكتبة كانت تنعقد فيها اجتماعاتها . وقد تولى أكثر من مرة ادارة الجمعية التي اقتنت عددا كبيرا من الكتب وكانت تهتم بوجه خاص بالمطبوعات المتصلة بالشرق : تاريخه وجغرافيته ودياناته وعاداته ، بل انها كانت تطمح الى أن تستطيع بمرور الزمن أن تنشر كتبنا متصل

---

(٦) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عصر محمد علي ( القاهرة ١٩٣٨ ) ص ٣٦٠ - ١ . راجع أيضا محمد فؤاد شكرى : بناء دولة مصر محمد علي ( القاهرة ١٩٤٨ ) ص ٦٤٥ . ويذكر شكرى ان عدد طلبة المدرسة بلغ ٢٢٥ .

(٧) أحمد عزت عبد الكريم : نفس المرجع والصفحة .

(٨) كتب محمد علي الى مختار بك مدير ديوان المدارس - بصدد مناهج مدرسة الهندسة - ليلفت نظره الى عدم وجوب كون التعليم سطحيا والى انه لم يعث حككيان ليصبح لوردا في أوروبا ، بل ليعود الى البلاد ويقوم بتعليم الطلبة النافعين للأمة وللبلاد وأمره بالجدية والحماسة في تعليمهم حتى لا يضرب بالعصى . ( أحمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٤٢٥ ) .

(٩) لفت حككيان نظر الباشا الى ضرورة تعليم البنات . ( محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ٦٦٦ ) .

باهتماماتها الخاصة (١٠) . وفيما بين عامي ١٨٤٤ و ١٨٥٠ ترأس ثلاث بعثات كانت تقوم بالبحث عن الفحم في مختلف صحارى مصر وجبالها . وفي عام ١٨٤٩ عين رئيسا لمجلس الصحة ولو أن مرضا مزمنًا أرغمه على التقاعد في عام ١٨٥١ ، وإن يكن قد تلقى تعليمات شفوية من عباس الأول في مارس من نفس السنة لكي ينفذ باسم حكومته بعض الدراسات الخاصة في وادى النيل لصالح الجمعية الملكية البريطانية (١١) . ولكنه سعى الى الحصول على الحماية الانجليزية في مواجهة احتمال تعرضه للعنف ونزوات الطغيان التي لا تقدر العواقب خاصة وأن عددا من الأشخاص من كلا الجنسين اختفوا فجأة دون أن يعرف أحد مصيرهم ، وكان ذلك من وراء مخاوف حككيان خاصة وأنه كان على صلة عائلية بأرتين بك (١٢) الذى تعرض لسخط الوالى (١٣) . الا أن مخاوف حككيان لم تكن تستند الى أساس فواصل تثقيفاته مع مستر ليونارد هورنر عضو الجمعية الملكية البريطانية حتى أواخر عام ١٨٥٦ حين أتم تقاريره النهائية

(١٠) جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في مصر محمد على ( القاهرة ١٩٥١ ) ص ٦٤ - ٦٥ . وقد اضمحلت الجمعية فيما بعد ، وتوجد كتبها في دار الكتب بالقاهرة وذلك تنفيذًا لوصية آخر أعضائها : حككيان وثربون وكينانى بك .

(١١) المخطوطة رقم ٣٧٤٦٣ ، ص ٢١٧ - ٣١٩ .

(١٢) كان حككيان متزوجا من أخت أرتين .

(١٣) المخطوطة رقم ٣٧٤٥٢ ، ص ٤٨ - من حككيان الى بريجز

بتاريخ ١٨٥١/٤/٢٩ .

وعيناته ورسوماته وعمليات المسح التي كان يقوم بها \* وبالإضافة إلى ذلك فإنه انشغل فيما بين عام ١٨٥٤ ونهاية عام ١٨٦١ بدراساته الخاصة التي ضمنها كتابا عاديا - ولما كان كثير من رجال العلم الذين احتك بهم وحادثهم أحيانا حول الموضوع قد شجعوه فإله أبدى. رغبته في نشر الكتاب في إنجلترا وطلب من والى مصر سعيد باشا أن يساعده على مواجهة نفقات اعداد وطبع مائتي نسخة من هذا المؤلف (١٤) ووافق سعيد على ذلك ودفع خمسمائة جنيه (١٥) ، وتم نشر الكتاب في لندن في عام ١٨٦٣ في طبعة خاصة تحت العنوان التالي :

A Treatise on the Chronology of siriodic Monuments

ولم أستطع تحديد وضع حككيان الوظيفى حين تم نشر الكتاب خاصة وأنه أشار إلى كونه « حككيان بك الاستانبولى الموظف السابق بالحكومة المصرية » \* أما أوراقه الخاصة ويوميياته ومراسلاته وملحوظاته ورسومه وغير ذلك ( ١٨٢٩ - ١٨٧٤ ) فقد قام ابنه تيتو حككيان أحد أقطاب الجالية الأرمنية فى الاسكندرية - باهدائها فيما بعد إلى المتحف البريطانى (١٦) \*

---

(١٤) المخطوطة رقم ٣٧٤٦٣ ، ص ١٧٨ - ٩ ( ملكرة مؤرخة ٢١ يولية ١٨٦٢ )

(١٥) نفس المخطوطة ، ص ١٨٢ - ١٨٣ و ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(١٦) عمر طوسون : البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهد عباس الاول وسعيد ( القاهرة ١٩٣٤ ) ص ١٠٧ .



تفتح اوراق حكيان في اربعة وعشرين مجلدا وثبت على  
الوجه التالي :

المجلد الاول :

مفكرات ورسوم ( ٢٥ ابريل - ٨ مايو ١٨٢٩ ) - يوميات  
في انجلترا ( يوليه ١٨٢٩ - يناير ١٨٣٠ ) - سيرة ذاتية كتبت  
خلال الرحلة الى مصر ( يوليه - سبتمبر ١٨٣٠ ) ويوميات  
الرحلة - يوميات في مصر ( ٢٩ أغسطس ١٨٤٠ - ٢٣ أغسطس  
١٨٤١ ) \*

المجلد الثاني :

تكملة اليوميات مع ملحوظات ميدانية \*

المجلد الثالث والرابع :

تكملة اليوميات \*

المجلد الخامس :

تكملة اليوميات بالاضافة الى سجلات حول التنقيبات  
الأركيولوجية والجيولوجية \*

المجلد السادس :

تكملة اليوميات \*

المجلد السابع :

ملحوظات ميدانية ورسومات \*

### المجلد الثامن :

استعراض التنقيبات التي أجريت فيما بين عامي

• ١٨٥٢ و ١٨٥٤

### المجلد التاسع :

• يوميات سجلت في عام ١٨٦٢

### المجلد العاشر :

رسومات خاصة بالآثار التي جرى التنقيب عنها في

عام ١٨٥٤ بالإضافة الى جداول بمنسوبات النيل وغير ذلك •

### المجلد الحادي عشر :

رسومات ( بعضها ملون ) ومشروعات الآثار والتنقيبات

المصرية والقوائم الخاصة بها •

المجلدات الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس

عشر والسادس عشر :

• مراسلات حككيان

### المجلد السابع عشر :

قوائم خاصة بالمناسيب وأعمال الحفر ومادة أخرى

• جيولوجية ( ١٨٥١ - ١٩٥٤ )

## المجلد الثامن عشر :

مراسلات وأوراق رسمية متفرقة كتبت باللغتين التركية  
والعربية ( ١٨٣٦ - ١٨٦٨ ) \*

## المجلد التاسع عشر :

أوراق وتقارير رسمية متفرقة ذات صلة بشئون مصر  
( حوالى عام ١٨٣٨ - ١٨٤٠ ) وغير ذلك \*

## الأجزاء العشرون والحادى والعشرون والثانى والعشرون :

مفكرات كتبت حوالى ١٨٦٨ - ١٨٧٢ \*

## الجزءان الثالث والعشرون والرابع والعشرون :

ثلاثة أبحاث أو مسودات كتاب عن التسلسل الزمنى للأرض  
أو « نظام التسلسل الزمنى المصرى والانجلى على ضوء  
العلاقة النظرية بين الذراع المصرى وبين التغيرات المادية  
في المنسوب السطحي في مصر » \*

ولكى تتمكن من تقويم المادة التى تتضمنها أوراق  
حككيان وأهميتها بالنسبة الى تاريخ مصر الحديث لابد لنا أن  
نعرض لشخصيته وأفكاره ونظريته ونشاطاته \* فهو مهندس تمكن  
من دخول « الحريم » وكان على صلة بالكثيرين في مصر  
وأوروبا . كما أنه اضطلع بعدة مهام في مختلف نواحي مصر  
وبالتالى فإنه كان على صلة وثيقة بالحياة الاجتماعية في الصحارى

والأرياف والمدن ، هذا بالإضافة الى اشتراكه في مداولات رسمية ، ولهذا فان المناصب الرسمية التي تولاها والتعليم الذي تلقاه قد أضفيا عليه ادراكا وثيقا لأحوال مصر والتقلبات الدولية في عصره . هذا الى أن معرفته بعدة لغات وتجاربه الخاصة قد عمقت أفكاره وأثرت ملحوظاته وجعلت منه رجلا ذا نظرة عالمية خالية من التعصب القومي . ورغم تخصصه في العلوم التطبيقية فقد كان يتذوق الآداب (١٧) وينحو منحى انسانيًا . فقد أمضى في إنجلترا اثني عشر عاما شهد خلالها نمو الثورة الصناعية وظهور مبادئ التجارة الحرة والنزعات الليبرالية . وهكذا فانه كان يرى أن « التعليم وحرية التجارة من شأنهما أن يجعللا الناس يلبون دواعي العقل » ويحكمون أنفسهم بأنفسهم . وقد أفصح عن وجهة النظر هذه في مجلس رأسه عباس الأول وحضره نوبار وآخرون (١٨) . وكان يجهد اقامة مؤسسات عامة يستطع فيها الفقير والغنى والعامة والتبلاء - بل وأبناء الملك - أن يتلقوا نفس التعليم ويتمتعوا بنفس المزايا التي يتمتع بها أبسط الناس . وقد ذهب الى وجوب أن تحظى

(١٧) ذكر في عام ١٨٤١ أن درويشا فارسيا كان يجيء كل مساء الى « مندرته » ويمضي معه ساعة او ساعتين يقرأ معه خلالها ويعلق ويتحدث بالفارسية وأنه يطلب الشاهنامة وبعض كتب التاريخ المشهورة ( المخطوطة ٣٧٤٤٩ ، ص ٥ ) .

(١٨) المخطوطة رقم ٣٧٤٥٢ ، ص ١٩ .

هذه المؤسسات بعناية خاصة من جانب الحكومة وأن تعتمد ( من حيث الصيانة والتعليم والملبس ) على ضرائب يجرى تحصيلها من الشعب كله (١٩) . ولما كان متأثرا بأفكار جماعة الفزيوقراط فإنه كان يحلم بمالم واحد تربطه المواصلات والتجارة لمصلحة الانسانية جمعاء : « فالزراعة والصناعة هما أهم مستلزمات التجارة . فنحن ننقل منتجات جزء من الأرض الى جزء آخر تتحول فيه الى تلك الأشياء التي يجرى تصديرها وتفيدنا في تلبية حاجتنا الملحة أو في الوفاء بكمالياتنا . فمن الواجب أن تشكل الشعوب أسرة واحدة تتبادل المساعدة - فحين يرتبط كل منها بالآخر يمكن تحقيق الهدف الأكبر من الطبيعة بحيث يتسنى بالفعل اجراء الاصلاحات في كل بقاع الأرض » (٢٠) .

وكان حككيان أميل الى قيام نظام عالمي للتعليم بحيث تتوحد المبادئ الأخلاقية في شتى أنحاء العالم ولا يمكن السماح بأي نظام جديد دون اطلاع البشرية عليه . ولكن أحوال الشرق لم تكن تسمح في ذلك الوقت بتطبيق مثل هذه الأفكار التقدمية - فرغم اعجاب حككيان بحكم محمد على الذي اعتبره حكما مستبدا مستنيرا فإنه كان شديد الانتقاد للحكم

(١٩) المخطوطة رقم ٣٧٤٤٨ ، ص ٢٧ .

(٢٠) نفس المخطوطة ، ص ٥٧ .

الشرقي: « فالمغتصبون في الشرق نادرا ما يمتلكون أراضيهم بصفة وراثية بحكم تنشئة آبائهم باهتمام أقل مما يحظى به حتى أبناء الأسر القديمة الذين يتمتعون بكرامة السيادة » (٢١) . ومن رأيه أن الدبلوماسية الشرقية تتضمن قدرا من التظاهر والخداع يفوق ما تتضمنه الدبلوماسية الأوروبية ، فلا ينجح شيء نجاحا فعليا . . بالنسبة الى معظم السفراء مثل اهانة الرجل وطرده بطريقة مهينة ، ولا يفوق ذلك سوى خداعه للتوصل الى الهدف . وتاريخ الشرق مليء بمثل هذه الأمثلة منذ عصر كورث . والصعوبة الوحيدة التي تعترض قيام الشخص بعمله على أحسن وجه دون صعوبات هي عدم اطمئنائه أحيانا الى اخلاص رئيسه وبالتالي لا يتسنى التغلب على الشكوك المتبادلة والاعتراض أمر مؤكد كما هو الحال في الوزارات الأوروبية » (٢٢) .

ومن الطبيعي أن يؤدي هذا الاتجاه الى تنديد حككيان بالطفيان الذي كان يارسه شيوخ البلد على صغار المزارعين في القرى (٢٣) . بحيث كان الفلاحون يعمدون الى ترك الزراعة ويفضلون الدخول في خدمة البدو أو يختبئون في المدن حيث يتحولون الى خدم أو مـ شابه ذلك من أعمال . كما أدى به هذا

(٢١) نفس المخطوطة ، ص ٥٨ .

(٢٢) المخطوطة رقم ٣٧٤٥٢ ، ص ٣٨ بتاريخ ٢٦ مارس ١٨٥١ .

(٢٣) المخطوطة رقم ٣٧٤٤٩ ، ص ٩١ - ٩٢ بتاريخ ١/٢٨ ١٨٤٣ .

الى مقت الطغيان الذى تمثل لديه فى عباس الأول بوجه خاص بحيث خشى أن ينكل به مما دعاه الى طلب الحماية الانجليزية وهو ما سبق أن أشرنا اليه • وكان رجل الشارع يشارك حكيان نظرتة الى الحكم المطلق السائد فى مصر فى عصره - فحين سئل مكارى عن عباس أجاب بأنه كسول وقاس على الفقراء : « فهو يكلفهم بأعمال شاقة فى الصحارى ويكاد لا يدفع لهم من الأجر الا أقل القليل • كما صرح بأن كثيرا من مواطنيه يموتون يوميا أثناء عملهم فى قصور الباشا • وكان الرجل من التعقل بحيث ذهب الى أنه كان من واجب سموه أن ينفق الأموال فى تحسين أحوال مصر ( القاهرة ) بدلا من القيام بالبناء فى الصحراء ، واستطرد قائلا أنه لو ألغى الوالى السخرة لغضنا الطرف عن سيئاته العديدة - فمن الظلم والقسوة أن يحرم الآباء من مساعدة الابن الوحيد الذى كانوا على استعداد لافتدائه بألف قرش حتى لا يفقدوا معاونهم فى الأعمال الزراعية » ( ٢٤ ) •

وهكذا نجد أن الملاحظات الاجتماعية الواردة فى أوراق حكيان تلقى أضواء على أوضاع مصر السياسية والاجتماعية فى أيامه خاصة وأنه قد تنقل فى أنحاء عدة من البلاد واتصل بأنماط مختلفة من سكانها - فهو يصف أحوال البدو فى عهد عباس الأول على الوجه التالى : « ان عباس باشا يعتمد محباتهم

( ٢٤ ) المخطوط رقم ٢٧٤٥٢ ، ص ٢٦ بتاريخ ٦ مارس ١٨٥١ .

ويتغاضى عن أعمال التخريب التي يرتكبونها وعن انتهاهم للفلاحين • فمن المعروف أن عامر (أو أمير) الطحاوى قد سرق حصانا ممتازا كان يمتلكه شيخ غنى في البحيرة وهو يمتطيته دون أن يعتريه أى خوف • وقد اشتكى الشيخ للحاكم ولكن دون جدوى • وإن الخلع التي تمنح باستمرار لشيخ القبائل المتوحشة إنما هي دليل على أن والى الحالى شديد الاهتمام بكسب ولاء البدو وذو الطباع الخشنة الذين يفهمون تماما السبب الكامن وراء دلالات الصداقة هذه ، ويزيدهم هذا الضعف جرأة مما يجعلهم يعودون إلى حرفتهم القديمة المستندة إلى التخريب • ومن ناحية أخرى فإن شيخ الفلاحين سيعودون إلى عاداتهم الخاصة بقطع الطريق • وبإمكان الشيخ أباطة (Abhassa) في البحيرة أن يستدعى حوالى اثني عشر ألف رجل مسلح لمساعدته • وهؤلاء المشايخ هي نبلاء البلاد ، ومن ثم فهم لا يبدون استعدادا لأن يزوجوا بناتهم للأتراك أو للسلطان ذاته أو لأعرق بيوتات أوروبا • وهم يعتقدون أن لهم حق السرقة داخل حدود أراضيهم ، ويقومون في أحسن الأحوال بتحصيل الاتلوات « (٢٥) • ولما كان حككيان قد لمس نوعا من التحول الاجتماعى الخاص بالعلاقة بين المسلمين وغير المسلمين فقد لاحظ أن عداة المسلمين للمسيحيين قد خفت حدته ولو أنه قد

(٢٥) المخطوطة رقم ٣٧٤٦٨ ، ص. ٤٠ - ٤٢ •



حل محلّه شعور آخر أكثر قوة وهو الكره والغيرة والخوف من الأوروبيين والجماعات الدينية التي يفترض أنها تتعاطف مع الأوروبيين (٣٦) .

وحيث يعرض حكيمان للشخصيات نجدّه يصطنع التحليل الذي يأخذ في عين الاعتبار العوامل الاجتماعية والسيكلوجية، وهكذا يصف عباس الأول بأنه شاب له صفات كان من الممكن أن تقيده هو وبالبلاد فيما لو تلقى التعليم المناسب ولكن التعليم السيء الذي تلقاه واحاطته بأشخاص جهلة وأثانيين قد حولاه الى طاغية مجنون (٣٧) . وهو يعرض لبوغوص يوسيفيان الذي قام بخدمة محمد علي لأكثر من ثلاثين عاما على الوجه التالي : (٣٨) « كان بوغوص بك رجلا ممتازا في حياته الخاصة ولم يبهز أحد في القدرة على انجاز المهام الرسمية وذلك اذا ما وضعنا في عين الاعتبار أنه كان مرءوسا لطاغية . ومن الممكن اعتباره من أعظم الوزراء الشرقيين لأنه ظل طيلة كل هذه السنوات يتمتع برضى طاغية وبلاط بتصف بالظقيان . وكان سر سياسته هو ألا يعمل بوحى من رغبته الخاصة وبهذا كان لا يجازف بشيء ، فكان لا يدلى برأيه للباشا بصفة شخصية كما كان يعترض على آرائه علنا بأي شكل من الأشكال » .

(٣٦) المخطوطة رقم ٣٧٤٥٢ ، ص ١٧ بتاريخ ٢ مارس ١٨٥١ .

(٣٧) نفس المخطوطة ، ص ٣٢٤ .

(٣٨) المخطوطة رقم ٣٧٤٤٩ ، ص ٢٣٥ بتاريخ رجب ١٢٥٩ هـ .

يضاف الى كل ما سبق أن أوراق حككيان تحتوي على رسوم وخرائط ومعلومات خاصة بمساكن مختلف قطاعات سكان مصر وملابسهم وعاداتهم • وأخيرا فلا يجب علينا أن نغض الطرف عن كون حككيان أول موظف في الإدارة المصرية خلال القرن التاسع عشر يحتفظ بيوميائه ومراسلاته وأوراقه الخاصة • ولاشك أن تسطيره معظم خواتمه باللغة الانجليزية كان من نتائج اقامته في انجلترا وتلقيه تعليمه بها (٢٩) •

---

(٢٩) يتضح من سيرة حككيان-الدانية التي كتبت في عام ١٨٢٩ خطبا  
ابراهيم أبو لند حين يذكر في كتابه :  
The Arab Rediscovery of Europe (Princeton, N.J., (1968), P. 69  
أن رفاعة الطهطاوي كان المبعوث الوحيد إلى أوروبا في عصر محمد علي الذي  
سجل انطباعاته عن السنوات التي أمضاها في الخارج .

## الموضوع الرابع

---

مذكرات نوبار باشا



قليلة هي المذكرات الخاصة التي سطرها من لعبوا أدوارهم في التاريخ العربي الحديث ، إذ ان عادة كتابة المذكرات الخاصة بصفة منتظمة لم تتأصل في تقاليدنا وخصوصا أن قلة نادرة من ساستنا هم الذين يقدرون قيمة مثل هذه المذكرات بالنسبة الى الأجيال الصاعدة ، وأن معظمهم لا يحتفظون بأوراقهم الرسمية ومكاتباتهم بالشكل الذي نلمسه لدى كثير من المسؤولين في الدول المتقدمة ، ويجدر بنا أن تساءل عن أسباب هذا القصور : هل هي مرتبطة بنسب الحياة الشرقية الصاخب الذي قد لا يدع للمسئول فرصة لكي يخلو الى نفسه وبسطر خواتمه بانتظام ؟ أم هي مرتبطة بعدم الشعور بالأمن واحتمال أن تؤدي المذكرات الخاصة الى متاعب غير منظورة اذا ما تبدلت موازين السلطة ؟ حقيقة أن بعض الشخصيات العامة قد نشروا « مذكراتهم » التي كتبوها من وحى الذاكرة بعد مرور وقت طويل على الأحداث التي عرضوا لها : الا أن مثل هذه « المذكرات » لا تعدو أن تكون ذكريات تلون الأحداث بألوان تبريرية على ضوء التطورات التي جرت وموقف المسئول منها .

هذا الى أن ايقاع الزمن قد يجعل الذاكرة تخون صاحبها فلا يكون دقيقا عن عرض ما يسجله - بالمذكرات بمعنى الكلمة يجب تسجيلها آتيا على شكل يوميات منتظمة قد تطول وقد تقصر كما تستلزم المحافظة على المراسلات الخاصة التي قد تكشف ما لا تكشفه الأوراق الرسمية \* وقد جرت عادة من خلفوا مذكرات خاصة من الساسة الغربيين على الاحتفاظ بيومياتهم وأوراقهم وتسجيل وصية بالمكان الذي تحفظ فيه وبالمدّة اللازم مرورها حتى يتاح للآخرين الاطلاع عليها ، وهي عادة نصف قرن يكون قد مات خلالها من وردت أسماؤهم في هذه المذكرات ، وتكون سرية ما سجلوه قد اتتفت أو كادت - ولو أن هذه المدّة قد انكشفت شيئا فشيئا نتيجة لسرعة ايقاع الحياة وتطور وسائل الاعلام وقيام بعض الحكومات دوريا بنشر مقتبسات من أوراقها الرسمية بين وقت وآخر \* بل ان المذكرات الخاصة لبعض المسؤولين المعاصرين قد أضحت وسيلة من وسائل التكسب \*

ومذكرات نوبار باشا التي نعرض لها ليست مذكرات بمعنى الكلمة ، بل انها « ذكريات » سطرها في أواخر حياته خلال الفترة الممتدة ما بين نوفمبر ١٨٩٠ ومايو ١٨٩٤ (١) \* موجها إليها الى القارئ العام بل الى أسرته وحدها دون أن يفكر في

(١) بوف نوبار في باريس في ١٢ يناير ١٨٩٩ \*

نشرها • ولعل هذا راجع ضمينا الى محاولته تبرير مواقفه  
الأبنائه وأحفاده ، لأن الدور الذى لعبه فى السياسة المصرية كان  
مثار جدل وخصوصا أنه كان من أنصار التدخل الأجنبى فى مصر،  
وأنه تعاون الى حد كبير من سلطات الاحتلال البريطانى •  
وساقصر تعليقى على « ذكريات » نوبار على ملحوظات أوردها  
فى مواضعها ثم أعقب عليها فى آخر الأمر ، مفضلا استهلال  
عرضنا بهذا نبذة عن حياته •

ولد نوبار نوباريان فى أزمير فى أسرة أرمنية فى ٤ يناير ١٨٢٥ •  
وكان والده وكيلا لوالى مصر محمد على باشا فى أزمير أولا  
ثم فى باريس • وكان الأرمن فى ظل الحكم العثمانى يشكلون  
طائفة دينية ( مللت ) لها بطريقتها الخاص المقيم فى استانبول ،  
والمنتمى الى أعيان الأرمن الذين سيطروا على « الطائفة » فى  
الوقت الذى كانوا يشغلون فيه وظائف عليا فى الحكومة  
وخصوصا بعد أن كسرت الدولة شوكة اليونانيين على أثر ثورة  
اليونان فى العشرينيات من القرن التاسع عشر • وكان التجار  
الأرمن فى طليعة من أفادوا من التطور الصناعى والتجارى الجديد  
الذى أصاب الامبراطورية العثمانية - وكان بعضهم يقوم باقراض  
التقود فى حين أن البعض الآخر كان من الحرفيين والتجار ،  
وكانت أغلبيتهم تقطن شرقى الأناضول فى حين أن أكثرهم تعليما  
وتقدما كانوا يقطنون المدن الكبرى وخصوصا استانبول

وأزمير ، كما كان كثير من آغنيائهم يبعثون أبناءهم الى أوروبا لتلقى التعليم العلماني الذي لم يكن متوفرا في الامبراطورية العثمانية حينذاك ، ويلعبوا دورهم في الوساطة التجارية والدبلوماسية نتيجة لاتقانهم بعض اللغات الأوروبية - ومن هؤلاء والد يوسف حكيكيان (٢) الذي كان مترجما لمحمد علي باشا وطلب منه أن يرسل ابنه ( يوسف ) لتلقى تعليمه في إنجلترا \* وهكذا تلقى نوبار تعليمه الابتدائي في جنيف : ثم توجه الى سورين - بالقرب من تولوز - في فرنسا حيث تلقى تعليمه بمدرستها الثانوية خلال الفترة الممتدة ما بين عامي ١٨٣٦ و ١٨٤٠ \* وفي هذا العام الأخير توفي والده في مرسيليا مما اضطره الى العودة الى أزمير حيث أمضى بعض الوقت قبل أن يتوجه الى مصر التي تولى فيها خاله بوغوص يوسفيان لفترة طويلة الاشراف على علاقات محمد علي الخارجية ونشاطاته التجارية \* وبادر بوغوص الى تقديم ابن أخته الى الوالي في سراي رأس التين ، ثم أسكنه معه وعينه سكرتيرا خاصا له . وكان الانطباع الأول الذي تولد لدى نوبار بعد انتقاله من أوروبا الى الشرق هو احساسه بالنقلة من العصر الحديث الى العصور الوسطى الشرقية \* ونستشف من مذكراته كم كان يرثي

(٢) راجع بحثي من أوراق حكيكيان في

P.M. Holt (ed), *Social and Political change, in Modern Egypt*, (Oxford University press. 1988).



لحال خاله الذى كان باستسرار يرتدى ملابس « الرهايا »  
المسيحيين ويعيش فى عزلة تامة ولا يتوجه لمقابلة الباشا الا بعد  
أن يتلو صلواته الأخيرة بحكم أن الأحداث التى عاصرها والمناظر  
الدامية التى شاهدها قد أثرت كثيرا فى نفسيته - بل انه كاد  
يفقد حياته نتيجة لاحدى سورات شك الباشا وغضبه + ومع  
كل هذا فان بوغوص كثيرا ما كان يصارح الباشا برأيه فى  
الوقت الذى كانت فيه نزوات الحكام وغضبهم تفضى الى الموت +

وفى عام ١٨٤٤ مات بوغوص فقيرا بل مثقلا بالديون ،  
وشهد جنازته كثير من سكان الاسكندرية المصريين والأجانب +  
وحين علم محمد على أن دفن بوغوص لم يتم باحتفال رسمى  
اجتاحته نوبة غضب وأمر باخراج جثة بوغوص من القبر واعادة  
اجراءات الدفن باحتفال يشهده كبار الموظفين الذين لم يشاءوا  
فى السابق أن تحاط جنازة ذمى باحتفالات رسمية مما آلم  
محمد على الذى كان يقدر خدمات بوغوص له طوال أكثر من  
ثلاثين عاما + حقيقة ان أوامر محمد على بهذا الصدد لم تنفذ  
بحدافيرها ، الا أن كبار الموظفين المسلمين شهدوا احتفالا  
رسميا على روح بوغوص فى كنيسة الأرمن وهو ما لم يسبق  
له مثيل +

وبعد وفاة بوغوص عمل نوبار مترجما لمحمد على الذى  
منحه ثقته لاتقانه للغتين الفرنسية والتركية والمأمه باللغة

الانجليزية ولتقديره للخدمات التي قدمتها له أسرته ، ويذكر نوبار أنه قرأ رسالة غير واضحة الخط كان الدوق دي مارمون قد أرسلها لمحمد على ولم يستطع أحد قراءتها ، مما أدى الى ذبوع شهرته في حاشية الوالى بصفته متعلما يتقن كثيرا من اللغات . ونحن نعتقد أن نوبار يبالغ في وصف أهميته بالنسبة الى الوالى ، اذ ان اتساع الحركة التعليمية في عصر محمد على الذي شهد ايفاد البعثات الى مختلف البلدان الأوروبية وخصوصا فرنسا ، ووفود عدد كبير من الأوروبيين الى مصر ، قد أمد حاشية الوالى بالكثيرين الذين يتقنون اللغات الأجنبية ويمكنهم ادارة مراسلات الباشا . ونحن لم نعثر في الوثائق البريطانية التي رجعنا اليها بصدد أواخر حكم محمد على والفترة القصيرة التي حكمها ابراهيم قبل وفاة والده على أية اشارة الى الدور الذي كان يلعبه نوبار لشاب في حاشية هذين الوالين . ولا يأتي نوبار في مذكراته بجديد حين يسجل أن محمد على قد أفسح المجال لتقدم مصر المادى على النمط الأوروبي باستقدامه الخبراء والفنيين الأوروبيين ( من أطباء ومهندسين وضباط بحريين ) وتكريمه اياهم بقصد تشجيع رعاياه على أن يكرمهم بدورهم ، خصوصا وأن المسلمين من رعايا الدولة العثمانية برغم تخلفهم ، كانوا لا يزالون يحتقرون الذميين ولا يسلمون. بتفوقهم عليهم أو مساواتهم بهم وتوليتهم مناصب قيادية في أجهزة الدولة ، وفي القوات المسلحة . ويشنى

نوبار في مذكراته على اتجاء محمد على الى مساواة المسلمين بالمسيحيين واستقدمه الخبراء من أوروبا وتخفيفه حدة الحواجز التي كانت لاتزال تفصل الشرق عن الغرب ، ويقر ما ذهب اليه معظم من تناولوا حكم محمد على من أنه مصلح عظيم حول مجرى تاريخ مصر الحديث وأقام فيها دولة راسخة الأركان بعد أن كان قد تسلسها ولاية عثمانية فقيرة ومتخلفة، بحيث أصبح يشار اليه باعتباره مؤسس مصر الحديثة + حقيقة أن عهد محمد على كان شديد الوطأة على شعب مصر الذي ضحى بالكثير في سبيل إقامة الدولة الحديثة ، وامثل لتوجيهات الباشا وشدته الا أن عهود الانتقال - بما في ذلك حكم محمد على - قد لاتخلو من شدة مبعثها الرغبة في اختصار مدى التطور . وهكذا نجد نوبار يطلق على محمد على ( ص ٦٩ من المذكرات ) صفة « المتبربر العبقري - «Ce barbare de génie» .

ويرثي نوبار لازدياد شكوك محمد على وأوهامه في أواخر حياته وخصوصا بصد ما تخيله من أن ابنه ابراهيم يتآمر للاستيلاء على الحكم وقد يلجأ الى الأساليب الشرقية فيدس له السم ليتخلص منه . وهذه الشكوك هي التي جعلت محمد على يستغنى عن خدمات نوبار ويعهد بها الى ابنه ربما ليراقب اتصالاته بالقناصل + وقد اصحط نوبار ابراهيم - الذي داهمته الأمراض - في أثناء الرحلات التي قام بها الى أوروبا وتوطدت علاقتهما في تلك الأثناء بحيث بثه

ابراهيم طموحاته فيما لو تولى حكم مصر • وفي باريس شرح  
نوبار لابراهيم الآثار التي شاهدها بحيث أحرز اعجابه • وبعد  
أن زارا لندن عادا الى مصر •

وفي خلال رحلة العودة أبدى ابراهيم شدة خوفه من طبيعة  
استقبال والده له وخشيته هو الآخر من أن يتعرض للموت  
بالسم • ثم توجه نوبار الى آزميز لقضاء بعض الوقت فيها ،  
وحين عاد الى مصر ( ١٨٤٦ ) عين في منصب السكرتير المترجم  
الثانى لمحمد على ، ثم رافق ابراهيم في زيارة ثانية الى أوروبا  
ازدادت خلالها وطأة المرض عليه مما زاد في شكوكه وعصبيته •  
أما محمد على فقد كانت الفترات الأخيرة من حياته بمثابة مأساة  
حقيقية : فقد اختلط عقله وازدادت شكوكه في ابنه ابراهيم وباتت  
تمر به فترات من الجنون والخوف الحقيقيين ، كان يجهد خلالها  
بالبكاء ولا يهدأ الا اذا نقل الى مسكن ابنته نازلى ، وازاء ذلك  
فكر كبار الموظفين في اقامة مجلس للوصاية يتولى حكم البلاد  
ولكن ابراهيم رفض هذا الاتجاه وتوجه الى استانبول لكي  
يضمن تنصيبه واليا • ولكنه لم ينعم بالحكم طويلا نتيجة لتدهور  
صحته • وكان نوبار يسرى عنه حتى وقت متأخر من الليل بأن  
يعيد الى مسامعه أخبار معاركه المظفرة • وخلال هذه الفترة  
كان عباس حلمي - حفيد محمد على وولى العهد طبقا  
لما نصت عليه القرارات نتيجة لكونه أكبر أفراد الأسرة

سنا - يخشى أن يقضى عليه عمه مما جعله يؤثر الابتعاد عن مصر الى الحجاز . واشتدت آلام المرض على ابراهيم ، وفي النهاية توفي بين ذراعى نوبار ( ١٨٤٨ ) ، ولم يأسف عليه أحد لشرسته وقسوته . وبعد وفاة ابراهيم بثلاثة شهور لحق به والده . ويخصص نوبار الفصل السادس من مذكراته لرصد أهم اصلاحات محمد على في مجالات الزراعة والرى وادخال محاصيل جديدة .

وفي وثيقة هامة أرسلها قنصل بريطانيا العام في مصر الى حكومته في ٥ أغسطس ١٨٤٩ (٣) نقرأ الفقرات التالية : « ان تعلق كل طبقات مصر باسم محمد على واحترامها له يشكل جنازة أفخم مما كان بإمكان حفيده أن يوفره (٤) . فالسكان المتقدمون في السن يتذكرون الفوضى التي أتقذ هذه البلاد منها ويتكلمون عنها ، في حين يقارن السكان صغار السن حكمه المتميز بالحيوية بحكومة خلفه التي يجرفها الهوى والتردد . وجميع الطبقات ، سواء من الأتراك أو من العرب يجمعون بصراحة على أن رخاء مصر قد مات مع محمد على أو - حسب مصطلحاتهم الشرقية - أن أنفاس مصر قد بارحت جسمها :

F.O. 78/804, No. 48 Murry to Palmerston.

(٣)

(٤) ابدى عباس كثيرا من العقوق لجده - فلم يشترك في جنازته او يصدر امرا باغلاق الحوانيت والمصالح الحكومية ولم يدع السلك القنصلى بهذه المناسبة .

وفي الحق \* لا يمكننا أن نكر أن محمد على ، برغم كل أخطائه ، كان رجلا عظيما \* فحين نحكم على شخصيته لا يمكننا اطلاقا أن نسي أنه ، دون أن يتمتع بميزة من نسب أو من ثروة ، قد شق طريقه الى السلطة والشهرة بشجاعته الفذة وبدأ به وذكائه \* فحين تولى الحكم كانت مصر مقطعة الأوصال نتيجة للنزاعات والشيوع ، كما كانت تتعرض المسلب والنهب على أيدي عصابات جواله من المغامرين ، كما كانت ماليتها وتجارتهما مستنزفتين ، وفي كل محافظة كانت الحياة والأملك تحت رحمة أصحاب السطوة \* كما لا يجب علينا أن نشدد في انتقاده حين كان يضطر أحيانا - بهدف القضاء على عوامل الشر والفوضى المستشرية لدى شعب لا يعترف بقانون آخر سوى القوة - الى اللجوء الى اجراءات تتصف بالقسوة والشدة \* اذ يقر الجميع بأن محمد على ، لو حكمنا عليه بمقياس كونه تركيا ، لم يتصف بالقسوة : اذ ان العقوبات التي نفذها كانت - مع بعض الاستثناءات القليلة - لازمة لأمنه أو للمحافظة على السلام العام ، وأخشى أن أشارك الكثيرين في التصريح بأنه - مثل معظم من أطلق عليهم لقب « الأكبر » - كان مفرطا في حبه للشهرة والسلطة ، ولو أن مطامحه لم يلوثها الجشع \* ورغم شدة غضبه الا أنه لم يكن يستمر طويلا \*

« ومن النادر أن تصل الى مسامح المرء في آية ولاية من

ولايات الإمبراطورية العثمانية فقرة تشبه الفقرة التالية :  
إذا ما مسح لى لله فأننى أتنازل بكل سرور عن عشر سنوات  
من حياتى لأضيفها الى حياة باشانا العجوز ، ولكننى علمت أن  
أكثر من شخص قد فاهوا بهذا التصريح خلال مرض محمد على .  
وبالإضافة الى ذلك فمن واجبنا ، كأوروبيين ، أن ننصف ذكراه  
بأن تتذكر أن المسافر أو الرياضى أو عالم النبات والحيوان  
الانجليزى كان يستطيع خلال عدة سنوات - فى الوقت الذى  
لم يكن يستطيع المسيحى فيه أن يتجول فى حلب أو دمشق أو فى  
أى مدينة خاضعة لحكم السلطان المباشر دون أن يتعرض للأذى  
أو الإهانة - أن يتجول عزلا من السلاح فى وادى النيل  
والصحارى المجاورة له ، وأن يضمن سلامة شخصه وأملاكه  
بالصورة التى يتمتع بها فى حديقة هايدبارك فى وضع النهار » .



ويتعرض نوبار فى مذكراته لشخصية عباس الأول  
وشكوكه وما رواه الأوروييون عن هواجسه واستبداده وتنحيته  
للأشخاص الذين ارتبطوا بالعهد السابق ، ولكنه من ذلك يشيد  
ببنائه للسكة الحديدية التى وصلت الاسكندرية بالقاهرة وقبض  
لها أن تمتد الى السويس فى عهد خلفه سعيد ، كما يشيد باعادته  
الأراضى الى الفلاحين الذين أرغموا على تركها . ورغم شك  
عباس فى نوبار لشدة ارتباطه بعمه ابراهيم فإنه لم يتردد فى

الافادة من خدماته (٥) واصطحابه الى استانبول حين توجه اليها لتسلم فرمان توليته حسب العادة المقررة \* ويذكر نوبار أنه ناقش في العاصمة العثمانية مشروع مد السكة الحديدية الذي عارضته السلطات التركية على اعتبار أنه سيفصل مصر عن الدولة العثمانية ويلحقها بانجلترا وأوروبا \*

وقد اختلف عباس عن جده وعمه في سعيه الى هدم النفوذ الأوروبي في مصر وتوثيقه علاقات البلاد بالدولة العثمانية \* \* خصوصا وأنه كان يعتقد أنه اذا ما تحتم عليه الخضوع لأحد فليكن « للخليفة العثماني » لا الأوروبيين \* كما كان يرى أن الصراع بين السلطان ووالي مصر لن يفيد سوى الأوروبيين ولن يؤدي الا الى الانهيار التام للامبراطورية العثمانية بما فيها مصر : خصوصا وأن مصر لم تكن في رأيه تتعدى كونها ولاية صغيرة لا امبراطورية كما كان عليه الحال في عهد جده ، وبالتالي كان يتجه الى أن تتمشى مؤسساتها ونظمها مع حجمها ودخلها - ومن ثم سعيه الى قطع دابر المؤامرات السياسية وطرد الطفيليين الذين رأى أنهم امتصوا دماء مصر في العهد السابق ، خصوصا وأنه كان يمتق اتجاه جده الى احاطة نفسه

---

(٥) عينه عباس ( يونيو ١٨٥٠ ) مديرا للادارة الصحية خلفا ليوستف حككيان الذي نفاه الى الصعيد في نفس الوقت الذي واصل فيه نوبار شغل منصب المترجم الثاني للوالي .



بعض الأوروبيين الذين كانوا يقيمون في مصر أو يفدون إليها باعتبارهم حلقة الوصل بينها وبين العالم الخارجى . وهكذا اتجه عباس الى العزلة والى احاطة نفسه بأتباعه المخلصين وحدهم ويرر ذلك بقوله : « لست تاجرا ولن يفيدنى هؤلاء السادة - فاذا ما شغلوا بتجارتهم فلن اطلب منهم ما يتعدى ذلك ، واذا ما اعتدى عليهم أحد فسأوفر لهم حمايتى ، وسأمنحهم مساندة خاصة اذا ما احتاجوا إليها . . ولا أود - كما كان الحال أيام جدى . . - أن يكون قصرى بمثابة مقهى يقد إليه الناس الذين ليس لديهم ما يشغلهم لكي يتجاذبوا أطراف الحديث » . أما علاقته بالسلك القنصلى فلم تشبها شائبة ولكنها لم تصل الى مستوى العلاقة الوثيقة التى بلغت أيام محمد على ، ومن ثم البرود الذى اتصف به استقباله خصوصا وأن معظم رجال السلك القنصلى كانوا من التجار . وفى عهده أنشئت ادارة للجوازات فى الاسكندرية لأن الاضطرابات التى عمت الجانب الأوروبى من البحر المتوسط شجعت عددا من الأشرار ومن لا مستقر لهم على أن يفدوا الى مصر للاقامة فيها (١) . ولم تكن علاقة عباس بكبار الموظفين على ما يرام ، كما أبعد عن الخدمة من كان يعتبرهم أنصارا لفرنسا التى

---

— F.D. 708/804, no. 27 dated 6 May, 1949 from (١)  
Murray to Palmerston.

ساندت جده ، بل لقد ألقى المؤسسات التي كان يديرها فرنسيون وأجرى تعديلات كثيرة على إدارات الدولة دون أن يكون لديه من الخبرة السياسية أو التعقل ما يجعله يفرق بين الغث والسمين (٧) . ويسجل نوبار أنه طرد من القاهرة والاسكندرية كثيرا من السحرة وضاربي الودع ومن على شاكلتهم ونفاهم الى الصعيد أو الى السودان .

وفي رأى نوبار كان عباس تجسيدا « للسيد العظيم *Le grand Seigneur* » أو للأمير الشرقي الحقيقي : فقد كان يعيش منعزلا منفردا ويصدر أوامره التي كان يتوقع أن تكون موضعا للطاعة العمياء . وقد صرح لنوبار بما يلي : « بإمكانى أن أعمل كل شيء ويشبهنى الجميع فى أنهم يمكنهم عمل كل شيء » . « أنا وزير ابن وزير وحفيد وزير . ولست تاجرا مثل جدى أو عمى ، واذا ما كان على أن أحصى التجار فلست ملزما بتقليدهم » . ويصف نوبار عباسا بالكرم فى حدود المعقول ، ويضرب مثلا على ذلك أنه دفع ديونه ( نوبار ) ويعلل ذلك بأنه لم يكن يجب أن يكون أحد حاشيته فى حاجة الى المال ، لأنه فى هذه الحالة يكون تابعا لدائنه لا لعباس . . ورغم ما يؤكد نوبار وغيره ممن تعرضوا لحكم عباس من أنه

Ibid, no. 59, dated 4 December, 1949.

(٧)

كان غريب الأطوار (٨) ومشارا لرعب الشعب ، الا أنه يقر بأن المصريين لم يعانون في عهده من الضغوط المالية والاقتصادية التي أثقلت كاهلهم في عهد جده . وقد أغلق عباس المصانع والمدارس المرتبطة بالجيش ، وذلك لادراكه أن شراء المصنوعات من أوروبا مباشرة أرخص ثمنا وأحسن نوعية . كما ألغى احتكارات الدولة (٩) التي فرضها جده بحيث توفرت للفلاح حرية بيع محاصيله للأجانب نقدا ولم يعد مضطرا لدفع الضرائب عينا بعد أن توفرت له النقود .

ويندد نوبار في مذكراته في أكثر من موضع بالسخرة ذلك النظام الذي عرفته مصر منذ أقدم العصور للقيام بالخدمات العامة وخصوصا ما يتعلق منها بمقاومة فيضان النيل بتعليق الجسور وتقوية شواطئ النهر واقامة السدود والقناطر والقنوات ، ثم امتد ليشمل كل الأعمال العامة التي تضطلع بها الدولة والحاكم . وكان الفلاح المصري لا يتقاضى أجرا عن القيام بهذه الأعمال ، ولا يصرف له غذاء أو يكسر اهتمام

---

(٨) يقال أنه كان سحرة . في عصره نهر مستانس كان يخيف به القناصل الأجانب .

(٩) لكي تضعف بريطانيا الأساس الاقتصادي الذي ارتكز عليه حكم محمد علي بقدت اتفاقية تجارية مع الدولة العثمانية ( ١٨٣٨ ) نصت على حرية التجارة داخل املاكها . ويخطئه نوبار حين يذهب ( ص ٨٢ - ٨٣ ) الى أن هذه المعاهدة قد وقعت في عام ١٨٣٦ .

بأحواله الصحية ، بل انه كان أحيانا عرضة للجلد بالكرباج .  
ويربط نوبار ( ص ٨٣ - ٨٤ ) بين السخرة والكرباج وبين  
الاستبداد الذى عرفته مصر منذ أقدم العصور ويفسر ذلك  
بالنظام الزراعى الذى جعل حاكم البلاد يركز السلطة فى يديه  
لكى يتسنى له الاشراف على توزيع مياه النيل ومقاومة الفيضان  
واقامة نظام رى الحياض المشهور . وبطبيعة الحال لم يعد  
هذا النظام يتمشى مع المبادئ الانسانية التى عرفها القرن  
التاسع عشر - فقد ندد به الأحرار من الانجليز بوجه خاص  
وجعلوا منه منطلقا لمناسبة نظام محمد على العداء ، كما أنه  
كان مناقضا لروح الاصلاحات التى شهدتها الدولة العثمانية  
فيما عرف باسم « التنظيمات الخيرية » التى كانت تهدف  
فيما تهدف الى تحديث الدولة وكسب مساندة الدول العظمى  
- وبريطانيا بوجه خاص - لها فى مواجهة أعدائها .

وقد استولى عباس على الاقطاعيات التى وزعها محمد على  
على أسرته وحاشيته التى كانت تتركز على الأتراك والشراكسة ،  
مما جعل كل هؤلاء يهاجرون الى استانبول حيث شكلوا حزبا  
مناوئا لعباس - فطالبه أبناء وأحفاد محمد على بأن يرد اليهم  
ميراثهم من أرض ومجوهرات - ومن ذلك اقطاعيات محمد على  
التي بلغت ٤٠٠٠٠٠ فدان ، كما طالبوه بأن يرد اليهم ثقلات  
اصلاح هذه الأراضى بما فى ذلك المباني التى أقيمت عليها

والأشجار التي غرست فيها • وأصر عباس على موقفه وذهب الى أن الأموال التي أنفقها محمد على وأنفقوها هم كانت في الأصل ملكا للحكومة التي يحق لها أن تستردها •

وواصل نوبار العسل مع عباس باعتباره سكرتيرا مترجما ثم مديرا لإدارة التفتيش الصحي • ورغم أن الوالي لم يعينه وزيرا للخارجية - إذ أن مصر ، باعتبارها ولاية عثمانية ، لم يكن يحق لها أن تكون لها سياسة خارجية مستقلة في حين كان يمثلها في الخارج سفراء الدولة العثمانية - إلا أنه كان يضطلع بأعمال تتصل بعلاقات الولاية المحدودة بالخارج ، خصوصا وأن الدولة العثمانية حاولت أن تطبق في مصر الإصلاحات المرتبطة بالتنظيمات الخيرية التي تضمنت وعد السلطان بإقامة العدالة في أملاكه وتحديد كمية الضرائب وتنظيم تحصيلها وتأمين المرء على حياته وماله وعرضه ، كما تضمنت تحديد مدة الخدمة العسكرية • وكان عباس يرى أن تحويل ملفات حالات الأعداء الى استانبول للحكم فيها من شأنه أن يهدد الأمن والنظام في البلاد على اعتبار أن سرعة تنفيذ الأحكام من شأنها أن تردع المذنبين • لهذا قاوم تطبيق التنظيمات في مصر إلا إذا عدلت بحيث تتماشى مع عادات البلاد وتقاليدها وما جرى به عرف الولاية فيها • وأرسل نوبار الى استانبول للتفاوض مع

الباب العالى بشأن هذه المسألة (١٠) . وفى العاصمة العثمانية اتصل نوبار بالسفير البريطانى الذى كان يتمتع بنفوذ قوى فى الدوائر العثمانية مبعثه قوة شخصيته ودفاع بلاده عن الدولة فى وجه طموحات محمد على ومساندتها لبرنامج الاصلاحات التى تضمنتها التنظيمات الخيرية ، وذلك كى تستطيع الدولة أن تقف على قدميها وتقاوم الضغط الروسى وتوفر حاجزا قويا فى وجه التوسع الروسى صوب الهند والمياه الدفيئة (١١) . ونفذ نوبار فى الآستانة مهمته على خير وجه وحصل على مساندة السفير البريطانى لموقف عباس بشأن مسألة ( القصاص ) التى سويت لصالحه . ويبدو أن نوبار تناقش فى استانبول مع السفير البريطانى حول مشروع الخط الحديدى بين الاسكندرية والسويس ، وهو المشروع الذى كان قنصل بريطانيا العام فى مصر ( مرى ) قد عرضه على الوالى فى بداية حكمه تنفيذا

(١٠) قدم النجار فى الاسكندرية والقاهرة ومواطنون آخرون من ذوى الحيشة مريضة الى القنصل البريطانى العام سحلوا فيها احتجاجهم على قرار الباب العالم الخاص بحرمات الوالى من حق تنفيذ حكم الاعدام فى المجرمين الذين ادينوا قانونا رحيم عليهم بالموت . وقد طالبت المريضة بابقاء هذا الحق فى يد الوالى . محافظة على الامن وناشدوا القنصل العام أن يلتزم من السفير البريطانى فى استانبول - س - سرافورد كانبج - أن سعى الى تأجيل اتخاذ قرار بصدد هذه المسألة حتى بحثها الحكومة البريطانية .

— F.O. 78/916, Encl. copy in no. 4 dated 24

January, 1852, from Murray to Granville

لتعليمات حكومته (١٢) \* وحين عاد نوبار الى مصر نصح عباس بتنفيذ المشروع وبين له أنه سيفيد التجارة والمواصلات الأوروبية ويساعد على تطوير الادارة المصرية بحيث تحصل البلاد على عطف الرأى العام الأوروبى مما يساعدها فى نزاعاتها مع الباب العالى \* واقتنع عباس بوجهة نظر نوبار وتفاوض فى هذا الشأن مع قنصل بريطانيا العام ، وأرسل نوبار الى لندن للتفاوض مع المسئولين البريطانيين \* ونجحت المفاوضات وبدىء فى مد الخط الحديدى الذى ربط الاسكندرية بالقاهرة فى عهد عباس ثم أكمل فى عهد خلفه سعيد \*

ورغم ما تواتر عن كره عباس للأرمن فى أواخر عهده (١٣) ، فإنه عهد الى نوبار وأخيه استيفان بتمثيله له فى برلين وفيينا ، ولم يمر وقت طويل على رحيل نوبار الى فيينا حتى وصله خبر موت عباس \* وفى الفصل العاشر من مذكراته نجده يسرد مختلف الروايات التى جرى تداولها بهذا الخصوص - هذا برغم أن الطبيين الايطاليين اللذين فحصا جثته أرجعا وفاته الى نوبة من

---

.. F.O. 78/804, No. 3 from Murray to Palmerston, (١٢)  
dated 16 Jan., 1849.

— F.O. 78/919, no. 30 Green to Clarendon, dated (١٣)  
19 Nov., 1858.

الصراع (١٤) \* وعلى أى حال فقد أدت وفاة عباس الى الغاء تمثيل مصر فى برلين وفيينا واعفاء نوبار من الخدمة باعتباره أحد رجال عباس \* ولعل هذا هو السبب الذى جعله يتصدى للدفاع عن عباس وسياسته ، فيصف عصره بأنه يسجل مرحلة من مراحل تطور مصر ، ويفند وجهات نظر من هاجموه ، مسجلا أن عصره الذى لم يعرف عنه الكثير قد تعرض للنقد الشديد وأنه كان موزعا للتجنى والأحكام الخاطئة - فقد ساد الأمن بالشكل الذى لم تعرفه مصر حتى ذلك الوقت ، كما يمتدح تخفيضه لنفقات الدولة وشدة حرصه على مصالح البلاد \* ويمكننا أن نتبين حقيقة حكم عباس بمقارنة ما سجله نوبار بما كتبه قنصل بريطانيا على أثر وفاة عباس (١٥) - فقد أكد حمق سياسته وتكديسه الأموال فى خزائنه مما تسبب فى افلاس الدولة ، وسجل أنه كان يبدى ميلا طفوليا الى البناء والمفروشات مما جعله ينفق كثيرا من المال ، فى الوقت الذى لم يكثر فيه بالادارة العامة وبمرتبات الموظفين ، بل انه وصل الى حد

---

— F.O. 78/1036, no. 35, Bruce to Clarendon, (١٤)  
dated 17 July, 1854.

ويؤكد بروس ( فى رسالته رقم ٣٩ المؤرخة ١٣ اغسطس ١٨٥٤ ) أن عباسا لم يمت مقتولا وأن اطباءه كانوا يتوقعون اما أن تداومه نوبة الصرع فى أى وقت أو يصاب بالجنون ، واستدلوا على ذلك بقسوته الشديدة فى أواخر مهده وانفلات اعصابه .  
(١٥) الرسالة رقم ٣٩ السابقة .



الامتناع عن دفع مرتبات الموظفين والجيش والخدمات العامة ويعزو اتجاهاته الى كونه الوحيد في أسرته محمد علي الذي لم يتلق تعليما أوروبيا أو يلم بلغة أوروبية أو يتوجه الى أوروبا ولو مرة واحدة بحيث لم تكن لديه أية فكرة عن حضارتها • ويضيف الى ذلك أن عباس قد تربى على الطريقة التركية حيث عاش الخدم الذين لقنوه كيف يكره أوروبا •

ورغم انحياز نوبار الى عباس حين قيم عهده ، فانه كان على العكس من ذلك شديد التقدر لخلفه سعيد الذي تعرضت مصر في عهده للغزو والانتهاك على أيدي العناصر الأوروبية التي تدفقت عليها وكل همها الكسب السريع بأي ثمن • ويشير نوبار الى الفوضى التي أحدثتها هذه العناصر في بلاط الوالي وفي الإدارات الحكومية وفي أوضاع المصريين بوجه عام ، ويعزوها الى شخصية الوالي الذي يكرر نوبار في أكثر من مناسبة أنه كان يفتقر الى احترام الذات وأنه كان يعشق المظاهر ويجب أن يكون موضعاً للاطراء - فقد اهتم بالجيش وبالاستعراضات العسكرية وأنفق الأموال بسخاء على شراء ملابس فاخرة للضباط والجنود واقامة المعسكرات التي كانت بعض خيامها من الحرير الخالص •

وكان سعيد قد استندى نوبار من فينا وعينه رئيسا لمحكمة الاستئناف ثم مديرا لإدارة التراخيص والسكة الحديدية • والى

هنا يكون نوبار قد اكتسب ثقة أربعة من الولاة \* ويعلق  
القنصل البريطاني على تعيين نوبار في منصبه الجديد على  
الوجه التالي (١٦) : « اتنى أعتبر اختيار نوبار بك بوجه عام  
أمرا مرضيا جدا - فلما كان قد ولد رعية للباب العالى فانه  
يجمع بين ذكاء الأوروبي وتعليمه وبين المعرفة التامة بالأتراك  
ولغتهم \* ولما كانوا يعتبرونه واحدا منهم ، فان ذلك يوفر  
تغلبا على صعوبه كبيرة ، ولولا ذلك لكان هذا التعيين مصدرا  
لغيره الأتراك الذين اعتقدوا أنهم أرغموا على وضع أجنبى  
على رأس واحدة من أهم ادارات الحكومة خصوصا وأنهم  
يحظون بقدر كبير من الرعاية \* ولدى معرفة كافية بالصعوبات  
التي تواجه مدير الترانزيت والسكة الحديدية في مصر بحيث أشعر  
بشيء من القلق بشأن نجاح المدير الجديد \* وسأسعى باستمرار  
الى أن أبذل له كل مساندى الرسمية - اذ من سوء الحظ  
أنه من المؤكد أن الموظفين الأتراك لا يمكنهم أن يقفوا على  
أقدامهم في وجه المؤامرات والضغوط المستمرة التي تواجههم  
بدون الميزة التي يوفرها التدخل الأجنبى - ولدينا مصلحة حيوية  
في أن تكون ادارة المواصلات الحديدية مرضية بحيث يكون  
تدخلنا أمرا مشروعا » \*

---

— F.O. 78/1314, no. 92, Green to Clarendon, (17)  
dated 22 dec., 1857.

. وأول ما لاحظته نوبار لدى عودته الى مصر ازدياد أعداد الأوروبيين وديب الحيوية في أبناء البلاد الذين زال عنهم الخوف الذي خيم عليهم في عهد الوالى السابق ، بحيث لم يعودوا يخشون التعبير عن آرائهم بحرية ، وبحيث مالوا الى الخروج للنزهة . كما أن نشوب حرب القرم التى استمرت ما بين عامى ١٨٥٣ ، ١٨٥٦ قد تسبب في انتعاش البلاد بسبب ارتفاع أسعار الحبوب الى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه بحيث لم يعد الحكام يصطنعون القسوة في تحصيل الضرائب وبحيث ازداد ثراء الملاك . وقد شجعت الحرب التجار اليونانيين والمشاركة على التغلغل في الصعيد خصوصا وأن سعيد قد أكد حرية التجارة التى شهدها عصر عباس كما أكد حرية تملك الأراضى التى بدأت أيضا في عهد سلفه . ولكنه كان يضيق بالشئون الادارية ويحيط نفسه بأشخاص عديمى القيسة والشخصية خصوصا وأنه كان يعتبر نفسه رجلا عسكرية لا يحترم الا المسائل المتصلة بالشئون الحربية وحدها ، مما جعل المديرين وحكام الأقاليم يحذون حذوه . كما كان يرحب ببناء المقيمين الأوروبيين في البلاد عليه ووصفهم له بأنه لبرالى ذو أفكار عالية . ورغم ذلك فان نوبار يسجل أن أمور مصر سارت على ما يرام بدون تدخل السلطة المركزية وأن هذا يثبت عدم صحة الفكرة الذاهبة الى ضرورة حكمها بالشدة وبالسخرة والكرماج .

الا أن ازدياد تدفق العناصر الأوروبية على البلاد قد  
أثار مشاكل لا حصر لها كانت ناتجة عن الامتيازات الأجنبية  
القديمة التي منحتها الدولة العثمانية للأجانب المقيمين في أراضيها  
منذ عصر السلطان سليمان القانوني ( في القرن السادس عشر ) .  
فطبقا لهذه الامتيازات كان الأجنبي لا يحاكم الا في القنصلية  
التابع لها ولا تنطبق عليه القوانين المحلية المستقاة من الشريعة  
الاسلامية ، كما كان مسكنه لا يفتش ولا يتعرض للقبض عليه  
الا باذن من قنصليته ، مما ساعد على التهريب والاجرام والتستر  
على المجرمين المحليين والضغط على الحكومة المصرية وابتزازها  
بالتهديد والوعيد والحصول على تعويضات وهمية على أيدي  
القناصل الذين كان معظمهم من التجار عديمي الذمة والشرف .  
ويصف قنصل بريطانيا العام هؤلاء القناصل على الوجه  
التالي : (١٧) « ان القناصل العموميين الذين يقبضون مرتبات  
هم التابعون لفرنسا والنمسا وبروسيا واليونان وأسبانيا  
والولايات المتحدة وسردينيا وانجلترا وروسيا . أما القناصل  
العموميون الذين لا يقبضون مرتبات ويعملون بالتجارة فهم  
قناصل هولندا وبلجيكا وتسكاينا ونابولي . ومعظم هؤلاء  
السادة ليسوا حتى من مواطني البلدان التي يمثلونها ( ومن

— F.O. 78/1222, no. 13, from Bruce to  
Clarendon, dated 4 April, 1856.

ذلك أن قنصل نابولي العام مشرقى عادى أمكنه أن يحصل ثروة ) فى حين أن بعضهم قد اشتروا تعيينهم مقابل دفع مبلغ من المال - والكل قد سعوا الى الحصول على مناصبهم لا من أجل مراكزها ، بل من أجل الفرص التى توفرها لاستغلال المشروعات الحكومية \* وهم لم يتلقوا أى تعليم يؤهلهم للمهام القانونية التى يطلب منهم الاضطلاع بها ، ومن الطبيعى أن يسعوا الى اقامة علاقات طيبة بالحكومة المحلية وأن يستغلوا لمصلحتهم الخاصة ما يوفره لهم منصب القنصل العام من سهولة الاتصال بالوالى » \*

وتتضمن مذكرات نوبار نماذج عدة للتعويضات الوهيمية المبالغ فيها التى أرغمت الحكومة المصرية على دفعها نتيجة للارهاب الذى فرضته بعض العناصر الأوروبية ، متحالفة مع القناصل ، على سعيد الذى اتصف بالتجبر مع المصريين والضعف أمام الأجانب \* وهكذا كانت الامتيازات الأجنبية فى عهده بمثابة رأس الحربة لذلك الغزو الخاطف لمصر بحكم أن الأجانب عمدوا الى اغراء الحكومة المصرية ، بصفتها المنتج الأكبر والوحيد فى مجتمع لم تعبد أرضه بعد للاستغلال الصناعى والتجارى \* وبمرور الزمن لم يعد الأمر خاصا بقناصل يتكسبون أو يتحكمون ، بل انه ارتبط بأوضاع اقتصادية

واجتماعية تنسرب من الغرب الى المجتمع الزراعى المصرى  
وتتخذ فيه مكانها وتفرض عليه قوانينها \*

ومن نتائج ضعف سعيد مع الأجانب منحه امتياز قناة  
السويس لصديق صباه فردنان دلسيس دون أن يحتاط ضد  
ما تضمنه الامتياز من امتيازات على البلاد وحكومتها \* فقد تعهد  
سعد لدلسبس بالتنازل لشركة قناة السويس عن جميع الأراضى  
اللازمة لحفر القناة الملحة وبأن يحفر قناة للمياه العذبة من النيل  
الى منطقة القناة وأن تتنازل الحكومة كذلك عن الأراضى  
اللازمة لها ، وهى مساحات شاسعة أخذت دون مقابل \* كما  
تعهد بوضع العدد الكافى من الفلاحين تحت تصرف الشركة  
لتشغلهم بمعرفتها وتحت ادارتها فى أى نوع تريده من الأعمال  
والإشغال العامة (١٨) ، وأعطيت واردات الشركة من دفع الرسوم  
الجمركية المستحقة عليها \* وأثبت نوبار أنه ضد كل عمليات  
الابتزاز هذه ، فقد تنبه الى مساوئ التدخل الأجنبى وحاول  
أن يتصدى له \* فبعد تعيينه مديرا للسكة الحديدية حاول  
أن يصلح أوضاعها المضطربة وتصدى للاضراب الذى قام  
به الميكانيكيون الأوروبيون واستبدل بهم ميكانيكيين مصريين ،

---

(١٨) كانت الحكومة تسوق للشركة للعمل فى كل شهر حوالى عشرين ألف  
عامل ، وقدر أن مثل هذا العدد من العمال كانوا يساقون فى نفس الوقت  
فى الطريق من بلادهم الى منطقة العمل ومثلهم يجمعون فى بلادهم تأهباً للرحيل ،  
فيكون المجموع حوالى ٦٠ ألف عامل كل شهر \*

وذلك رغم احتجاجات القناصل ومخاوف سعيد كما خُصص  
الادارة من التدخل الأجنبي وقلل من اللجوء الى السخرة في  
أعمالها \* وحين اضطر سعيد الى الاقتراض نتيجة لاسرافه حاول  
بنك الكونتوار دسكوات Comptoir d'Escompte الفرنسى  
أن يكون ضمان القرض على شكل اشراف على مالية مصر \*  
الا أن نوبار رفض تنفيذ طلب سعيد الخاص بكتابة خطاب  
بهذا الصدد \* وحين ازدادت اجراءات الابتزاز من جانب  
الأوروبيين لأموال مصر والمصريين على شكل تعويضات ،  
اقترح تشكيل لجنة تحقيق أوروبية لحسم الخلاف ، وتم  
تشكيل اللجنة بالفعل ولو أنها لم تنجز الكثير بسبب تحيز  
أعضائها \*

وفي عام ١٨٦٢ اصطحبه سعيد الى باريس ولندن \* وفي  
العاصمة البريطانية تباحث مع لورد بالمستون حول قناة  
السويس ، كما ناقش فكرة انشاء محاكم مختلطة (١٩) تقضى  
على فوضى القضاء القنصلى ويشترك فيها قضاة مصريون

---

(١٩) حاول قنصل بريطانيا العام ان تقنع عباس الاول بانشاء  
محاكم مختلطة .

F.O. 78/804, private letter from Murray to Palmerston, dated  
6 April, 1849.

ويحتوى ملف وزارة الخارجية البريطانية ٨٤٠/٧٨ على كثير من الوثائق  
التي يشتم منها سمر، بريطانيا ، في كل من القاهرة وإستانبول ، الى اقامة  
مثل هذا النوع من المحاكم .

وأجانب في حسم القضايا المدنية والجنائية الخاصة بالأجانب . وكان نوبار مقتنعا بأن استقلال مصر لم يكن محضورا في هذا الامتياز أو ذاك الممكن الحصول عليه من الحكومة العثمانية ، بل في زيادة قوة مصر بتحسين ادارتها وهو أمر لا يتسنى تحقيقه ما دام الى جانب الحكومة المصرية سبع عشرة قنصلية ينتمى اليها ١٥٠٠٠٠٠ أوروبى وتتمتع كل منها بسلطة تضاهى سلطة حاكم مصر ماديا وأديبا وتعرقها في كثير من الأمور . وكان خير علاج في رأيه هو جمع المحاكم والسلطات القضائية العديدة في مكان واحد يخضع له الجميع على السواء دون تمييز أو استثناء . ومن ناحية أخرى كان نوبار مقتنعا بأن خير نظام للحكم في الشرق هو الحكم المطلق بشرط أن يخضع الحاكم لسلطة القانون المستند الى دعامة أخرى مستقلة عن الحاكم وأقوى منه وذلك بفرض عنصر أوروبى على القضاء المصرى بحيث لا يخاطر الحاكم بتحديه خوفا من الدول الأوروبية (٣٠) . وفي طريق العودة الى مصر ناقش نوبار مع السفير البريطانى في الآستانة - سير هنرى بلور - موضوع قناة السويس . وكانت بريطانيا منذ البداية تعارض المشروع وضربت على الوتر الحساس حين لفتت نظر الباب العالى الى

---

(٢٠) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصر والمسألة المصرية من ١٨٧٦ الى

١٨٨٢ ، ص ٢٠



خطورة انشاء هذا الطريق المائي الذى قد يؤثر على نظام الدفاع عن مصر بحيث يتوقف ارتباطها بالدولة العثمانية على حسن نيات الوالى الذى قد يفيد من التسهيلات المادية التى يوفرها له حفر قناة السويس فيخلع ولاءه للباب العالى ويعلن استقلاله مدفوعا الى ذلك بأطماعه الشخصية أو بتحريض أى جهة أخرى . كما وجهت نظر انساسة الأتراك الى أن سعيد قد أرفق بعقد الامتياز الأول خطابا أقر فيه أن عقد الامتياز ذاته يجب أن ينال موافقة الباب العالى (٣١) . ورغم ذلك فقد كان نفوذ دلسبس ، المستند الى تعضيد الحكومة الفرنسية ، يجرف كل شيء أمامه خصوصا وأنه كان يياشر نفوذا شخصيا قويا على الوالى الذى لم يعبأ بمعارضة بريطانيا بحيث ان مياه البحر المتوسط ، حين وفاته ، كانت قد جرت حتى بحيرة التمساح . وسيبقى نوبار فى عهد الخديو اسماعيل الى التصدى للشروط المجحفة التى تضمنها امتياز القناة دون أن يقضى على المشروع برمته .



أما القسم الرابع من المذكرات الذى يشغل أكثر من نصف حيزها ، فهو يتناول عهد الخديو اسماعيل ( ١٨٦٣ - ١٨٧٩ ) ويمكن اعتباره أهم أقسام مذكرات نوبار ، فقد قلب نوبار فى

(٢١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل ، ص ٢١ - ٢٢ .

عهد هذا الحاكم في عدة مناصب هامة فرض طابعه عليها واتخذ فيها عدة قرارات هامة واستطاع اقناع اسماعيل بالموافقة عليها واختلف معه بصدد ما أدى الى اعفائه من منصبه عدة مرات ليعود اسماعيل الى تعيينه من جديد لشدة حاجته اليه، وقد شغل نوبار في عهد اسماعيل الحقب التاليسية : وزارة التجارة ووزارة الأشغال العامة ووزارة الخارجية ورئاسة مجلس الوزراء ورئاسة أول وزارة « مسئولة » . وكانت المناصب التي تولها نوبار في عصر اسماعيل تتصل من قريب أو من بعيد بمسائل ذات صفة سياسة ، واستطاع هو أن يفرض طابعه عليها مستعينا في ذلك بذكائه الفطري ونشاطه الجهم واستعداده الدائم المتعلم واتقانه لعدة لغات . وأيا كان المنصب الذي شغله فانه كان يتمسك بمبادئ أساسية ترتبط بمصلحة الشعب المصري سواء أكان يتولى مناصبا رسميا أم لا ، بل وفي أثناء وجوده في المنفى . ومصدر هذه المبادئ جميعا هو مفهوم العدالة الذي تمسك به تمسكا شديدا : فهو يتصدى للاستبداد وقسوة الضرائب والأساليب التعسفية التي اتصفت بها الإدارة المصرية التي لم يحكمها قانون ، كما يتصدى للامتيازات الأجنبية والسخرية ، ونحن نجده يعبر في مذكراته عن حبه الصادق لمصر ، وهو ما نلمسه في أقواله التي منها : « ان الإقامة في أوروبا شاقة بصورة أو بأخرى على الشرقى ،

أيا كانت الراحة التي ينعم بها المرء في أثنائها • ففيها لا يستطيع أن يحيا ويؤكد ذاته • ويمكنني أن أقول اننى أمضيت فى الخارج اثنتى عشرة سنة من مجموع سنوات حكم اسماعيل البالغة خمسة عشر عاما (١٢) ، قمت خلالها بمهمات ورحلات وقضيت فيها فترات فى المنفى • وكنت باستمرار أشعر بالأسى لبعدى عن مصر وأحن إليها — ولدى عودتى إليها كان يغمزنى السرور الشديد » (٢٣) •

وفى عام ١٨٦٧ كتب ما يلى الى زوجته التى كانت فى نيس :  
« فسرت لك فى خطابى السابق سبب تأخير رحيلى الى استانبول •• اننى أتمنى الى مصر ولن نستطيع ، أنت وأنا ، أن نعيش فى مكان آخر •• وذلك رغم أن الحياة فيها مستحيلة طالما يعيش فيها الأوروبيون دون أن تحكمهم قيود أو قانون وطالما لا توجد لدينا محاكم • اننى أتألم لأننى لا أطيق الظلم • ونحن بحاجة الى محاكم تحميّنا من الأوروبيين ومن الوالى ، فمثل هذه المحاكم توفر لنا العيش الآمن والكرام • اننا بحاجة الى محاكم تجعل مصر هى مصر • وان اقامة العدالة هى التى ستسير بنا رأسا الى الاستقلال • ونحن عبر لى الوالى عن طموحه الى الاستقلال كان ردى الضريح عليه هو أن أول ما يجب

(٢٢) بلغ حكم اسماعيل ستة عشر لا خمسة عشر عاما •

(٢٣) مذكرات نوبار ، ص ٢٦٦ •

علينا عمله هو أن نكون رجالا وأن نرفع النير الذي يفرضه  
علينا الأوروبيون » •

لهذا بذل نوبار في عصر اسماعيل جهودا متواصلة ( يفصل  
الكلام عنها في مذكراته ) لاقامة المحاكم المختلطة • فقد أجرى  
مفاوضات مع الدول السبع عشرة المتمتعة بالامتيازات الأجنبية •  
وعلى حين أن انجلترا وألمانيا والنمسا كانت في صف الإصلاح  
القضائي فقد عارضته كل من فرنسا والدولة العثمانية • فرنسا  
كانت تعتبر نفسها الراعي التاريخي للامتيازات الأجنبية ، في  
حين لم ترحب دوائر استانبول بالمفاوضات المباشرة بين مصر  
والدول وذلك على اعتبار أن الإصلاح المرغوب فيه يتضمن  
خرقا للشريعة الاسلامية التي تأنف أن يحاكم المسلم على يد  
ذمي ، ولأن تطبيق قوانين أجنبية في إحدى الولايات قد يؤدي  
الى سيطرة الأجانب عليها • وتوجت جهود نوبار بالنجاح في  
آخر الأمر وافتتحت المحاكم المختلطة في أوائل عام ١٨٧٦ • وكان  
العنصر الأساسي فيها من الأوروبيين الذين كانت تعينهم  
حكوماتهم • أما القوانين المطبقة فيها فقد اختلفت اختلافا أساسيا  
عن أحكام الشريعة الاسلامية التي كانت من الممكن الرجوع  
اليها • وعلى حين لم يسمح باستعمال اللغة العربية فيها فقد  
كانت اللغات السارية فيها هي الفرنسية والانجليزية والاطالية •  
حقيقة أن نوبار قد سعى بحسن نية الى تنظيم القضاء القنصلي

الا أن قوانين المحاكم الجديدة لم تكن معروفة لدى الفلاح العادى مما جعلها وسيلة لابتزاز الفلاحين على أيدي المراءين الأجانب . وفى علاقاتها بالحكومة خولت النظر فى كل الحالات التى تمس فيها الاجراءات الادارية حقوق الأجانب ، كما أنها بحكم وجوب افادتها بكل القوانين العقارية الجديدة ادعت لنفسها ضرورة الموافقة على كل قانون يمس نظام الضرائب . وأهم من هذا أنها عرضت اسماعيل وكل أفراد أسرته لأحكامها فى كل ما يمس مصالح الأجانب مما أدى الى تصويب ضربة شديدة الى ما كان يتمتع به ولاية مصر من حكم مطلق - وقد يكون هذا هو الهدف الرئيسى لنوبار الذى كتب لأحد أصدقائه يوم توقيع الاتفاقية الخاصة بائشاء المحاكم المختلطة : « اليوم وضع أول نغم تحت سلطة اسماعيل وأظن أن هذا اللغم سينفجر يوما ما » (٢٤) . حقيقة أن المحاكم الجديدة نظمت القضاء القنصلى ولكنها لم تلبث أن ووجهت بالنقد فيما بعد لأنها نصبت قضاة أجانب للحكم فى المسائل التى تهتم المصريين ولأن ائشاءها هى والمحاكم الأهلية قد أدى الى تراجع أحكام الشريعة الإسلامية .

الا أن كثيرا من المصريين والأجانب رحبوا بالاصلاح

---

Sabry L'Empire Egyptien sous Ismail, P. 318.

(٢٤)

مدكورا فى كتابى مصر والمسألة المصرية ، ص ٢٢ .

القضائي بحيث افتتح في اليوم التالي لوفاة نوبار اكتاب لاقامة  
تمثال له في الاسكندرية التي قامت فيها محكمة الاستئناف  
للقضاء المختلط . وقد ساهم في هذا الاكتاب كثير من سكان  
مصر من اهل وأجانب ، بل لقد ساهم فيه عدد من فقراء القرى  
والفلاحين الذين تبرعوا بقروشهم القليلة لاحياء ذكرى « أبو  
الفلاح » الذي دافع عنهم وخلصهم من الظلم الذي كانوا  
يرزحون تحته .

كما بذل نوبار جهودا متواصلة من أجل تقليص الامتيازات  
التي حصلت عليها شركة قناة السويس . ففي استانبول عول  
على الاعتماد على انجلترا من أجل القضاء على امتيازات  
الشركة ، وعلى فرنسا للتغلب على محاولة كل من انجلترا  
والباب العالي فرض السيادة العثمانية المباشرة على مصر (٢٥) .  
وفي باريس شن نوبار حملة صحفية على الشركة وتوصل مع  
دلسبس الى اتفاق وافق فيه هذا الأخير على الغاء السخرة  
واعادة الأراضي التي نص عليها الامتياز الى الحكومة المصرية .  
وفي النهاية أمكن الغاء السخرة واسترداد معظم الأراضي لكن  
بعد أن تقاضت الشركة في نظير ذلك تعويضا من الحكومة  
المصرية هو الذي مكنها من مواصلة العمل الى أن انتهى حفر

---

(٢٥) راجع تفاصيل مفاوضات نوبار بهذا الخصوص في :

G. Douin, Histoire du Règne du Khédive Ismail, tomes I et II.

القناة ووصل البحرين المتوسط والأحمر ، كما تفاوض نوبار في عاصمة الدولة العثمانية حول توسيع استقلال مصر الذاتي مما أدى في عام ١٨٦٦ الى تعديل نظام وراثته العرش في مصر بحيث يكون في أكبر أبناء الوالى الذى حصل في عام ١٨٦٧ على لقب خديو الذى ميزه عن سائر الولاة العثمانيين وعلى حق عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية بشأن التجارة والتراخيص وبوليس الأجانب وحق سن القوانين التى تمس الأوضاع الداخلية لمصر وحق عقد القروض وزيادة الجيش والأسطول ، وبذلك حصل اسماعيل على حرية فى العمل استغلها لسوء الحظ فى الاقتراض والدخول فى علاقات مستقلة مع الدول الأجنبية فيما يتعلق بتسوية الديون . وأخيرا أكد فرمان ١٨٧٣ كل المزايا التى منحتها الدولة العثمانية لمصر وحكامها منذ عام ١٨٤١ . وقد أعجب الصدر الأعظم العثمانى محمد أمين على باشا ببراعة نوبار فى التفاوض فعرض عليه أن يعينه وزيرا للأشغال العامة فى استانبول . الا أن اسماعيل رفض هذا العرض كما رفضه نوبار ذاته بحكم أن استانبول ليست مصر وأن الحكم المطلق السائد فى البلدين يسهل التصدى له فى مصر عنه فى الدولة العثمانية وأن تقاليد أسرة نوبار كانت مرتبطة بمصر : «فالإنسان لا يتخلى عن بلده كما يتخلى عن زوج أحذية بال . . . واذا كان الوالى لا يرحب بى فبامكانى أن أكون فى بلدى

شخصا عاديا أنعم باستقلالي ولكننى لن أكون على الاطلاق  
موظفا فى الباب العالى» (٢٦) \*

وبعد أن ازداد سوء أوضاع مصر المالية وبدا تخبط  
اسماعيل أخذت علاقاته « بوزير خارجيته » تزداد سوءا يوما بعد  
يوم ، خصوصا وأن اسماعيل كثيرا ما كان يتصرف فى الأمور  
على هواه بحيث ان نوبار كان يرى أن مناقشته لا تعنى دراسة  
مسألة ما وايضاها بل جعل محدثه يشير عليه بعمل ما يسعى  
هو فى الواقع الى عمله وأن يتخذ القرار الذى يرغب هو فى  
الواقع فى اتخاذه (٢٧) \* وفى عام ١٨٧١ أصدر اسماعيل قانونا  
غربيا أطلق عليه اسم قانون المقابلة نص على اعفاء كل من  
يدفع ضريبة الأرض لست سنوات مقدما من نصف الضريبة  
الى الأبد \* وأقبل كثير من الملاك على دفع المقابلة واضطر  
بعضهم الى الاستدانة لهذا السبب \* وعلى حين أن المقابلة كانت  
اختيارية فى البداية الا أنها لم تلبث أن أصبحت اجبارية\*وقدرت  
الأموال التى تم تحصيلها بهذا الشكل بنحو ١٥ مليون جنيه \*  
وقد انتقد نوبار هذا القانون انتقاده لازدياد الضرائب وقسوة  
الاجراءات المتبعة فى تحصيلها ، كما انتقد السخرة واثقال كاهل  
الفلاحين بالرسوم والضرائب \* وحين فكر اسماعيل فى فرض

---

(٢٦) مذكرات نوبار ، ص ٣٩١ \*

(٢٧) مذكرات نوبار ، ص ٤٢١ \*



رسوم جبركية داخلية على البضائع المنقولة من اقليم الى آخر ، بشرط أن يدفعها المصريون وحدهم ، أصر نوبار على تطبيقها على الأجانب ، وأمكته أن يفرض رأيه رغم معارضة القناصل • واستنكر نوبار استحواذ اسماعيل وأسرته على ١٢٠٠٠٠٠٠ فدان من مجموع الأراضى الصالحة للزراعة والبالغة ٢٠٠٠٠٠٠٠ فدان الى ٤٠٠٠٠٠٠ فدان ، واقتنع بأن لا صلاح لمصر الا اذا تنازل اسماعيل عن هذه الأراضى واكتفى بمخصصات سنوية • كما اعترض على اتجاه الخديو الى فرض الاحتكار على تجارة السودان مما أدى الى اعفائه من الخدمة ( مايو ١٨٧٤ ) وان يكن اسماعيل قد اضطر من جديد الى اعادته الى وزارة الخارجية • ويستنكر نوبار فيما سجله عن عامى ١٨٧٤ - ١٨٧٥ القسوة المتبعة فى تحصيل الضرائب مما أرغم الفلاحين على بيع محاصيلهم قبل جنيها فى الوقت الذى ازداد فيه الوضع سوءا • وفى أوائل عام ١٨٧٦ كان ولفرد بلنت فى زيارة الى مصر وقد آثاره ما شاهده فيها بحيث قدم لنا الصورة المثيرة التالية (٢٨) : « كان من النادر حينئذ أن ترى شخصا فى الحقول وعلى رأسه عمامة أو يرتدى أكثر من قميص على ظهره • بل ان ارتداء العباءة كان مقصورا على عدد قليل من مشايخ البلد • وأيضا ذهبنا

---

— Secret History of the English Occupation of (٢٨)  
Egypt, PP. 11 — 12.

مذكورا فى كتابى مصر والمسألة المصرية ، ص ٤٣ •

تكررت القصة • وكانت مدن الأقاليم تمتلئ في أيام الأسواق بالنسوة اللاتي يبعن الى المرايين اليونانيين ملابسهن وحليهن الفضية وسبب ذلك ضغط جباة الضرائب على القرية وكرايهم في أيديهم • كما اعترض نوبار على ما اتتواه اسماعيل من ارسال حملة لغزو دارفور ، خصوصا وأنه كانت تجول بخاطره أطماع توسعية دفعته الى محاولة غزو الحبشة مما عرضه لهزيمتين فادحتين في الوقت الذي فشلت فيه مساعيه الى السيطرة على زنجبار •

وازاء كل هذا التخطب من جانب الخديو نجد نوبار يبدأ في لعب دور مثير للجدل سأحاول فيما يلي أن أقيمه تقييما موضوعيا مستندا في ذلك الى دراستي الوثائقية الخاصة بهذه الفترة والتي أوردتها في كتابي « مصر والمسألة المصرية » الآنف الذكر وبمذكرات نوبار ذاته • فحين اشتدت أزمة مصر المالية وازداد وضع البلاد الاقصادى سوءا طلب اسماعيل من بريطانيا أن تعيره أحد موظفيها لترتيب شئونه المالية في الوقت الذي كان ينوى فيه اعلان افلاسه وهو ما عارضه نوبار والدول التي كان رعاياها دائنين لمصر ، ومن ثم لجوء اسماعيل الى بيع أسهم مصر في قناة السويس للحكومة البريطانية • ثم أرسلت بريطانيا الى مصر بعثة يرأسها ستيفن كيف عضو مجلس العموم البريطاني وكبير القاهمين على شئون المدفوعات - وكانت

مهمة هذه البعثة اجراء تحقيق مبدئى يمكن الحكومة البريطانية من أن تقرر هل توافق أم لا توافق على طلب اسماعيل الخاص بتعيين موظف انجليزى مستشارا ماليا للجزايرة المصرية • وعارض اسماعيل منذ البداية اجراء التحقيق الذى كانت تهدف اليه الحكومة البريطانية ، كما عارضه نوبار الذى يشير فى مذكراته الى أن « كل الدم المصرى ثار فى عروقه » حين تبين هدف البعثة وصرح لكيف بقوله : « فى ظل هذه الظروف كان من الأفضل ألا تأتى الى مصر على الاطلاق » • وانتهم نوبار المنافسات الدولية التى أحاطت ببعثة كيف لكى يتوصل الى افشالها • حقيقة انه كان لا يزال يميل الى أن يتعاون العنصر الأوروبى مع المصريين بحيث اقترح على كيف ايفاد انجليزى له من السعة والكفاءة ما يؤهله لشغل وزارة المالية المصرية مع توفير الضمانات الكافية لاستدامة نفوذه بحكم وضعه ذاته وخوف اسماعيل من استقالته ، وان يكن حتى ذلك الوقت يعارض أى تدخل فى شئون مصر أو فرض الرقابة على ادارتها • ورغم ما يشير اليه فى مذكراته من أن معارضته للبعثة كانت تابعة عن حبه لمصر فقد توفر لنا من الأدلة ما يشير الى أنه كان يطمح بسبب أصله الأرمنى ، « الذى أن يعينه الباب العالى واليا على أرضروم التى كان ثمة مشروع بمنحها استقلالاً ذاتياً ووضعها شبيها بوضع لبنان • ولما كان يلقى تأييدا من جانب سنڤيرى

روسيا وفرنسا في استانبول فانه كان يطمح في استغلال نشاطه ضد بعثة كيف للتقرب من كلا السفيرين والباب العالي الذي رفض مساعي السفير الروسي بهذا الخصوص ، وان يكن نوبار اكتسب الى جانبه قناصل روسيا وألمانيا والنمسا وايطاليا الذين نصحوا اسماعيل بتوخى التعقل وعدم الاستسلام للنفوذ البريطاني وحده ، وهو ما نصحه به الباب العالي والسفير الروسي في استانبول \*

حينئذ كانت قد ازدادت شكوك اسماعيل في نوبار الذي انتقد سياسته الاقتصادية والسخرة وجباية الضرائب مقدما والاتفاق الباهظ على الجيش \* وفي يناير ١٨٧٦ تم تعيين محمد شريف باشا وزيرا للخارجية بدلا من نوبار الذي احتفظ بوزارة التجارة \* وقدم نوبار استقالته وصرح لقنصل فرنسا العام بأنه بدأ يشعر بفقدته لثقة الخديو الذي لم يصحح سمعا لنصائحه وأحاط نفسه بمستشارى سوء لا يحسنون العواقب ويسيروا بالبلاد صوب الخراب \* أما اسماعيل فقد اتهم نوبار بأنه كان من وراء ارسال بعثة كيف وبعثة مماثلة أرسلتها فرنسا لمواجهة المخططات البريطانية ، وبجب السلطة وادعاء البرالية برغم ميله الى الطغيان وطلب منه مبارحة مصر . الا أن نوبار بين في مذكراته ( ص ٤٦٧ ) أنه كان يسعى الى مقاومة التدخل

الأجنبي (٢٦) . وأنه نصح اسماعيل بأن يبادر الى اقامة مراقبة  
مصريه تجنبه الرقابة التي كانت الدول توشك أن تفرضها عليه  
مما تسبب في طرده من مصر . وعلى أى حال فقد ازداد التدخل  
الأجنبي في شئن مصر فأثنىء صندوق الدين الذي مثلت فيه  
الدول العظمى ووجه أول ضربة شديدة الى استبداد حاكم مصر،  
ثم تلا ذلك فرض رقابة انجليزية فرنسية على مالية البلاد .  
أما نوبار فقد طفق يتجول في العواصم الأوروبية شارحا وجهات  
نظره في كل من لندن وباريس وبرلين - ولما كانت المسألة  
الشرقية قد احتدمت في ذلك الوقت نتيجة لثورة بلغاريا ضد  
الحكم العثماني ثم الحرب الروسية - التركية التي تلت ذلك ،  
فقد جرى اقتراح . بتعيينه واليا على بلغاريا التي طرح اقتراح  
بمنحها استقلالاً ذاتياً على نمط الوضع المعمول به في لبنان ،  
ولو أن الحرب الروسية - التركية أدت الى فشل المشروع .

وازاء احتدام الموقف لدولى في أعقاب تصدى بريطانيا  
للتوسع لروسي في البلقان وتهديدها بالحرب ورواج الاشاعات  
الخاصة بقرب احتلالها لمصر ، فان نوبار بدأ تحركا في اتجاه  
المصالح البريطانية . فمنذ بعثة كيف كان قد اقتنع بأن جسامه

---

(٢٩) سبق ان اشرنا الى ان نوبار كان يحيد نوعا من التدخل الاجنبى  
الذى من شأنه شل سلطة الخديو ، وهو ما لم يكن الشعب المصرى يستطيع  
القيام به في هذه المرحلة .

ديون مصر لا يريد أن تفضى الى التدخل الأجنبي • ولو أنه كان شديد الرغبة في مقاومته اذا ما كان في صالح الدائنين وحدهم • ولما كان هذا التدخل يعرض استقلال مصر للخطر ان لم يقض عليه تماما ، فقد رأى وجوب عدم اغفال مصالح الشعب المصرى - وخير وسيلة لذلك هي اما الاحتلال البريطانى أو فرض الحماية البريطانية على مصر • وفى برلين طرح وجهات نظره هذه على المستشار الألمانى أوتوفون بزمارك الذى رحب بها بطبيعة الحال باعتبارها بديلا لاصطدام بريطانيا بروسيا بسبب البوغازين • ثم توجه الى لندن لمتابعة هدفه وأن لم يجد آذانا مضيعة لدى الدوائر المسئولة ، خصوصا وأن رئيس الوزراء البريطانى اليهودى الأصل بنيامين دزرائيلى لم يكن يجد فى احتلال بلاده لمصر ضمانا ضد الأطماع الروسية ، بل كان يعتبر استانبول - لا قناة السويس - المفتاح الحقيقى لطريق الهند • ولكن نوبار وجد ترجيحيا باتجاهاته من جانب العسكريين الانجليز ومن وزارات الخارجية والهند والخزانة ، كما اتصل بالصنحفى ادوارد دايسى رئيس تحرير مجلة القرن التاسع عشر «The Nineteenth Century and after» وأطلعته على مذكراته (٣٠) (التي يخطيء ابنه بوغوص فى تدليله للكتاب

(٣٠) راجع : Dacey, The Story of the Khedivate, PP. 166 - 8.

مذكورا فى كتاب مصر والمسألة المصرية ، ص ٤٨ •

الذى نحن بصدده حين يذكر أن والده بدأ كتابتها بعد تقاعده )  
وكشف له حقيقة أوضاع مصر • ونشر دايسى مقالات عرض فيها  
وجهات نظره بالشكل الذى يعد رأى العام البريطانى ان لم  
يكن لاحتلال مصر فلغرض الحماية البريطانية عليها •

ثم انتقل نوبار الى باريس حيث قام باتصالات وثيقة بكل  
من يهمهم أمر ديون مصر وعرض عليهم رأيه الخاص بعدم  
اجراء تخفيض فى فائدة الديون قبل اتخاذ الخطوات اللازمة  
لتقدير قيمتها ومدى مقدرة مصر على الدفع واجراء تحقيق حول  
الأسباب التى أدت الى ارتباك اسماعيل المالى •

ثم تشكلت لجنة التحقيق العليا التى تألفت من مندوب  
انجليزى وآخر فرنسى بالاضافة الى أعضاء لجنة صندوق  
الدين • وكان الهدف الضمنى من التحقيق هو محاكمة الخدبو  
والتأكد من قدرة مصر على الاستمرار فى دفع نسبة الأرباح  
السارية على الديون واستبدالها بنسبة أخرى اذا ما عجزت عن  
الدفع • ومن الطبيعى أن يعترض اسماعيل على نشاط اللجنة  
التي أبدت ازاءه روح التشفى وتتبع شئونه الشخصية فشكا  
الى قنصل بريطانيا العام من أن التحريات التى تقوم بها عنه  
وعن أصول الأراضى التى انتحوذ عليها تتضمن التشكيك  
فى نزاهته • ويبدو أن مساعى نوبار فى لندن وباريس قد مهدت  
لتعيينه رئيسا للوزراء خصوصا وأنه كان يتبدل النصح للحكومتين

الفرنسية والبريطانية فيما يتعلق بالتحقيق ، وصرح لدايسى فيما بعد بأن وزيرى خارجية الدولتين نصحاها ، بعد أن يعود الى القاهرة ، يبذل كل جهده لتقليص مساحة أراضى الخديو الى أقصى حد . ولم يكن نوبار بحاجة الى مثل هذه النصيحة - إذ انه كان يجزم بأن ضياع الأسرة الحاكمة فى مصر كانت المصدر الأساسى لشقاء البلاد وبأن اعادتها الى الدولة كانت حجر الأساس بالنسبة الى أى اصلاح مرتقب . وحين تم الاتصال به لتبيين شروطه بخصوص تشكيل الوزارة طلب أن يتلقى دعوة صريحة من اسماعيل الذى صرح بأن هدفه من استدعاء نوبار هو وضع حد للشكوك الشائعة عن تأمره . وقبل أن يعود الى مصر حاول أن يحصل على ضمانات من برلين ولندن وباريس وصرح لدايسى بأنه حصل من وزير الخارجية البريطانية ( روبرت ماركيز سولسبرى ) على ضمان ضد احتمال اقالة وزارته فحواه أنه سيتلقى المساندة الفعالة من جانب الحكومة البريطانية .

وفى ١٥ أغسطس ١٨٧٨ عاد نوبار الى مصر بعد أن أصدرت لجنة التحقيق تقريرها المبدئى الذى أوصى بتنازل الخديو عن الحكم المطلق وتسليم أراضيه للدولة وقبوله مرتباً سنوياً واجراء بعض الاصلاحات فى الادارة المالية . ووافق نوبار على تقرير اللجنة وصرح بأنه سيقوم ، بعد تلقي الدعوة لتأليف الوزارة ،



باختيار شخص انجليزى وزيراً للمالية بشرط أن يكون فى يده مطلق السلطة فى العزل والتعيين ، كما سيختار شخصاً فرنسياً ليتولى منصباً أقل أهمية ويعين أحسن العناصر المصرية فى بقية المناصب بحيث يفرض سلطة الوزارة على الخديو . ثم حاول أن يقنع اسماعيل بقبول تقرير اللجنة بحذافيره ، ولما لم يصب فى مسعاه هذا نجحاً هدد بالرحيل عن مصر وترك المسألة فى أيدي الدول الكبرى فيما لو لم يتم قبول التقرير . وتعرض اسماعيل لضغوط شديدة لكى يتنازل عن أراضيه ويتخلى عن الحكم المطلق (٣١) . وأخيراً استسلم مرغماً وقبل تقرير لجنة التحقيق دون ابداء أى تحفظ وكلف نوبار بتأليف الوزارة مقراً فى خطابه اليه بهذا الصدد مبدأ المسؤولية الوزارية بمعنى أن يحكم عن طريق مجلس وزرائه وبالإشتراك معه . وتقرر تعيين انجليزى ( رفرز ولسون ) وزيراً للمالية ، وفرنسى ( دى بلنير ) وزيراً للأشغال العامة .

ولكن اسماعيل ، الذى لم يقبل وزارة نوبار - التى عرفت باسم الوزارة الأوروبية - إلا مرغماً ظل يتلمس الفرص التى قد تتيح له استرداد سلطته المطلقة ، خصوصاً وأنه كان من المعروف عنه أنه لا يحترم وعوده . ولأسباب عدة كان النظام

---

(٣١) أشار نوبار فى مذكراته ( ص ٤٧٧ ) الى أن سلطة اسماعيل كانت

تفوق سلطه لاما التبت .

الجديد مقضيا عليه بالفشل ، فتوفير الانسجام بين مختلف العناصر التي تضمها الحكومة ، والتوفيق بين وجهات النظر المتضاربة ، والمصالح المتعارضة وشفاء الأحقاد المتنافرة ودفن الوزارة الى العمل بروح الجماعة - كل هذا كان يتطلب مهارة فائقة وقدرا كبيرا من الحنكة السياسية ، ولما كانت هذه التجربة تمارس في بلد اسلامي كان من اللازم أن يمثل العنصر الوطني في الوزارة مشاعر السكان ووجهات نظرهم وميولهم الدينية تمثيلا كافيا ، ولما كانت مصر حتى ذلك الوقت لم تعرف سوى نظام الحكم المطلق كان من الواجب أن يتعاون رئيس الدولة مع الوزارة حتى يتسنى لها الاضطلاع بالسلطة ، إلا أن نوبار وولسون لم يحاولا إخفاء مقتهما الشخصي لاسماعيل ، بل بدلا كل ما في وسعهما لتجريداه من كل سلطة وتحويله الى مجرد حاكم اسمي ، في الوقت الذي كان فيه اسماعيل لا يزال يتمتع بنفوذ قوى على الموظفين الوطنيين وكان بيده نجاح النظام الجديد أو فشله ، خصوصا وأن نوبار لم يحظ بعطف الشعب أو بثقته ( بعكس ما رددته في أكثر من موضع في مذكراته ) : فقد كان المصريون يعتبرونه أداة لفرض الحماية البريطانية على البلاد : هذا بالإضافة التي كونه أرمينيا ذميا ، كانت طبقة الموظفين المصريين تجزم بأنه أثرى على حساب المصريين ، باعتباره عميلا للرأسماليين الأوروبيين ، كما اعتبره

الفلاحون الروح المحركة لانشاء المحاكم المختلطة اتى. أسلمتهم لشراة المارين اليونانيين . وعلى حين أن نوبار لم يتقن اللغة العربية كان الوزيران الأجنيان يجهلان لغة البلاد وعاداتها وتقاليدها مما أدى الى صعوبة فرض سلطة الوزارة على المرءوسين وجعلهم ينفذون خططها . لهذا كله أثارَت الوزارة سخطا واسع النطاق استغله اسماعيل في الأخذ بثأره في أقرب وقت . لهذا اتهم فرصة المظاهرة التي قام بها الضباط المسرحون الذين لم يقبضوا روايتهم طوال عشرين شهرا وآهانوا خلالها ولسون ونوبار اللذين تصادف مرورهما على كوبرى قصر النيل وطالب باستقالة وزارة نوبار الذى اتهمه بسلب سلطته وضعفة مركزه . وحين سئل نوبار عما اذا كان بإمكانه المحافظة على الأمن العام أجاب بالنفى وقدم استقالته . وبرغم أن بريطانيا وفرنسا حاولتا احتفاظ نوبار بمنصب وزارى دون أن يتولى رئاسة مجلس الوزراء ، الا أن اسماعيل رفض اضطراره بأية مسئولية وزارية وطلب منه أن يغادر مصر ، فتوجه الى أوروبا حيث تابع اتصالاته بالدوائر الإنجليزية والفرنسية التى بدأت تفكر جديا فى خلع اسماعيل ولو استلزم الأمر إرسال حملة عسكرية الى مصر لارغامه على الرضوخ لرغبات الدولتين الغربيتين . ويذكر نوبار أنه هو الذى عرض على سفير بريطانيا فى باريس - لورد ليونز - أن يقنع دولته بحث اسماعيل على

التنازل عن العرش بدلا من أن تتصل الدولتان بالباب العالي  
لتطلبنا منه خلع اسماعيل • وأخيرا اتفقت الحكومتان الغريتان  
على نصح اسماعيل بالتنازل عن العرش لابنه توفيق على أن  
يخصص له راتب سنوي اذا ما وافق على اقتراحهما ، واشترطنا  
أن يكون مفهوما أنهما ستضطران الى الاتصال بالسلطان مباشرة  
للعمل على خله ، وفي هذه الحالة لن يحصل على الراتب  
السنوي أو يكون في مقدورة ضمان المحافظة على النظام القائم  
لوراثة العرش لمصلحة ابنه توفيق • وأخيرا أصدر السلطان  
فرمانا ينص على خلع اسماعيل خشية أن تخلعه فرنسا وبريطانيا  
وتوفرا بذلك سابقة تتيح لهما خلع أي وال عثمان لا يتمشى مع  
رغباتهما • ثم أصرت فرنسا وبريطانيا على أن يبارح اسماعيل  
مصر فغادرها في أواخر يونية ١٨٧٩ • وتأهب نوبار للعودة الى  
مصر واسترجاع سلطته ، وأذاع من منفاه أنه سيتولى رئاسة  
الوزارة • ولكن الوالي الجديد - محمد توفيق بن اسماعيل -  
أبدى رغبته في أن يبقى نوبار خارج مصر • ولما كان قنصل  
فرنسا العام في مصر حينئذ ( تريكو ) يشك في نوبار ويعتبره  
أداة في يد بريطانيا وألمانيا لوضع مصر تحت الحماية البريطانية،  
فانه ساند مساعي توفيق • ويعزو نوبار من جانبه موقف تريكو  
منه الى أن كان قد طلب منه مبلغا من المال لم يمكنه تديره •  
ولا يستكمل نوبار مذكراته الى ما بعد خلع اسماعيل ،

برغم توليه رئاسة الوزارة في عهد توفيق ( ١٨٨٤ - ١٨٨٨ ) .  
وفي عهد خلفه عباس الثاني ( ١٨٩٤ - ١٨٩٩ ) ولا يقدم ذلك  
تفسيرا معقولا .



ويذيل نوبار مذكراته بملحوظات يذكر فيها أنه كتبها في  
الفترة الممتدة ما بين نوفمبر ١٨٩٠ ومايو ١٨٩٤ بهدف تقديمها  
لأمرته وحدها دون أن يفكر في نشرها . وفي هذا التذييل  
نجد أنه يفسر مواقفه التي صادفنا جوانب منها في السياق السابق ،  
فيؤكد إيمانه بالعدالة التي يلمح إلى أنها قد تحققت في نهاية  
الأمر في الوقت الذي أنهى فيه مذكراته وكان لا يزال فيه مشغولا  
بمستقبل مصر الذي لاحظ أنه يسير صوب الاستقلال والاعتماد  
على النفس والمحافظة على مصالح الآخرين الذين يهتمون بمصر  
بحكم موقعها الجغرافي وبحكم أن وضعها يرتبط ارتباطا وثيقا  
بما عرف باسم « المسألة الشرقية » . ورغم أنه لم يستطع التنبؤ  
بما سيكون عليه هذا المستقبل إلا أنه أبدى تفاؤلا بمعشه  
إيمانه بالشعب المصري الذي - في رأيه - يشبه الطفل في مرجه  
ولطفه ، ولو أنه في بعض الأحيان يشبه الطفل أيضا حين يعتمد  
الازعاج . فرغم خضوع هذا الشعب عبر القرون للغزاة  
والطغاة الذين استغلوه وأساءوا إليه إلا أنهم لم يؤثروا فيه ولم  
يسبروا أعماقه التي صمدت للأحداث ولم تتزحزح . وطالما

تحققت العدالة لهذا الشعب الذى اطرح العبودية ، فان المستقبل  
 - كما رآه نوبار - كان يبشر بآمال كبار ، والغريب أن مفهوم  
 العدالة هذا لم يتحقق الا فى ظل الاستعمار البريطانى الذى  
 رأينا أن نوبار لم يتورع عن التمهيد له باعتباره وسيلة للضرب  
 على أيدي الحكام من أسرة محمد على على الذين لم يقيموا وزنا  
 للقيم الانسانية واعتبروا الشعب المصرى - كما اعتبره الحكام  
 الأجانب الآخرون - أداة للاثراء وتحقيق الأطماع ، وتقييمنا  
 لدور نوبار فى هذا المضمار يختلف باختلاف نظرتنا الى  
 الأشخاص والأشياء والقيم ، فنحن نفر من السيطرة الخارجية  
 وثؤمن بالاستقلال وتقرير المصير ، ولكننا لا نتردد فى أن نجزم  
 بأن أوضاع الشعب المصرى بعد عام ١٨٨٢ كانت أحسن حالا  
 مما كانت عليه تحت حكم كل من محمد على وعباس وسعيد  
 واسماعيل ، وقد يقول قائل ان نوبار من الأشخاص الذين يطلق  
 عليهم عادة اسم « أعوان الاستعمار » ، ولكننا لا يمكننا أن  
 نعطف الرجل حقه ، فقد لعب دورا - آيا كان حكمنا عليه -  
 فى زعزعة الحكم المطلق الذى عرفته مصر منذ أقدم العصور .



وقبل أن ننهى عرضنا هذا لا بد أن نشير الى الملاحظات  
 التى سطرها بوجوهى بن نوبار فى عام ١٩٣٣ ، فهو يشنبر الى  
 المزاغل التى مر بها اعداد مذكرات آبيه التى لا تكتمل صورتها

الابقراءة الرساءل اللى بعث بها نوبار الى زوجه ، وهى رسائل  
يبلغ عددها أكتر من ١٥٠٠ رسالة تتضمن شرحا لأفكاره وأعماله  
ومشاهداته وللأحداث اللى شارك فيها . وفى هذه الرسائل  
يشرح نوبار الأسباب اللى جعلته لا يستكمل مذكراته ، اذ ضعفت  
حماسته منذ أن فقدت مصر استقلالها فى أعقاب خلع الخديو  
اسماعيل ، وبدا له أن تاريخها قد أصبح أقل اثاره عما كان  
عليه من قبل ، وذلك رغم اشتراكه فى الحياة العامة وكونه من  
العاملين على الغاء السخرة فى عام ١٨٩٠ . فىل مرجع هذا  
أن نمط الحياة فى مصر فى ظل الاحتلال البريطانى كان مخالفا  
لما كان عليه من قبل ، وأن هذا الاحتلال قد حجم دور نوبار  
كما حجم أدوار آخرين ممن لعبوا دورهم على ساحة السياسة  
المصرية ؟

لقد حث بعض الأصدقاء نوبار على نشر هذه المذكرات ،  
بل لقد بدأ صديقه ادوارد دايسى ترجمتها الى اللغة الانجليزية ،  
ولكنه لم يوافق على النشر مكتفيا بأن أبدي لزوجه رغبتة فى  
نشر ما يتعلق منها بعصر محمد على وعباس وسعيد مقدرًا صعوبة  
نشر ما يتعلق بعصر اسماعيل الذى عمل نوبار مع ابنه توفيق  
وحفيده عباس . وبعد وفاة نوبار فى عام ١٨٩٩ ظلت هذه  
الصعوبة قائمة بحكم أن أبناء وأحفاد اسماعيل ظلوا يتعاقبون  
على حكم البلاد ، وأن الملكين فؤاد وفاروق اعترضوا على نشرها .

وقد تجددت رغبة أسرة نوبار في نشرها بعد سقوط النظام الملكي في مصر عام ١٩٥٢ ، ولو أنهم رأوا أن الوقت غير مناسب للانضمام الى جوقه نقاد « العهد البائد » ، وان سمحوا لبعض الباحثين بالاطلاع عليها . وأخيرا قام مريت بطرس غالى على نشرها في عام ١٩٨٣ دون أن يضيف اليها أو يحذف منها شيئا .

أما رسائل نوبار الى زوجته التي كان يفترق عنها كثيرا نتيجة للمهام التي كان يقوم بها الى الخارج ولأن صحتها لم تكن تساعدها على البقاء في مصر خلال فصل الصيف (٣٣) فانها لم تنشر بعد . وقد بذل بوغوص نوبار جهدا كبيرا في قراءة هذه الرسائل ونقل منها الصفحات التي تهتم الأسرة أو تتصل بالأحداث السياسية التي اشترك فيها والده . وكان وجه الصعوبة فيما قام به بوغوص أن نوبار لم يسجل التواريخ الا نادرا . ولمس بوغوص أن والده لم يستعمل رسائله الى زوجته في كتابة مذكراته ، فحاول اضافتها اليها ولو أنه وجد أن حجم الرسائل يبلغ ضعف حجم المذكرات ، مما جعله يؤجل نشرها ، ثم بحث من مؤرخ متخصص في تاريخ المسألة الشرقية ممن تعرفوا على والده لكي يعهد اليه بكتابة سيرته ، ووقع اختياره على

---

(٣٢) تغطي هذه المراسلات الفترة الممتدة بين زواجهما في عام ١٨٥٠ وبين

١٨٩٥ الذي تقاعد فيه نوبار .



سبر فالنتين شيرول المدير السياسى السابق لجريدة التايمز اللندنية الذى كان قد زار مصر مرارا وتوثقت علاقته بنوبار الذى أطلعته على انجازاته ومفاوضاته والمعارك التى خاضها من أجل الاصلاح القضائى • وبدأ شيرول العمل وأودع المذكرات معلومات لم تنشر وضعها بوغوص تحت تصرفه ، ولكن يبدو أنه لم يتابع جهده فى هذا المضمار •

ويشير بوغوص الى أن مذكرات والده الذى تجنب أن يجعل منها سيرة ذاتية ، مكتفيا بشرح الأحداث التى شارك فيها والتعليق عليها ، لا تخلو من أوجه نقص ، خصوصا وأن والده سطرها من الذاكرة دون أن يضمها أية تواريخ أو يراعى الترتيب الزمنى للأحداث فى سياقها الصحيح ، خصوصا وأن والده لم يحتفظ بيوميات أو بنسخ من الوثائق التى كتبها ، مما جعله يستعين فى تحقيق المذكرات بمراسلات والده الخاصة وبما خلفه من أوراق تضم أعدادا كبيرة من الوثائق ( خطابات رسمية وخاصة ، برقيات ، ملاحظات ، ومفكرات ) ذات الأهمية التاريخية • ولم يكن هدف بوغوص كتابة سيرة والده حتى لا يتهم بالتحيز ، وهو يسجل أن مهمته لم تتعد جمع المذكرات وترتيبها ، وأن العمل الذى اضطلع به لن يكتمل إلا اذا وضعت تحت تصرفه المذكرات الموجودة فى مصر • وهذه المهمة متروكة

لباحث يتصدى لتقويم دور نوبار تقويما متكاملا خصوصا وأن  
بالإمكان الآن الاطلاع على الوثائق الأصلية المودعة بدور  
المحفوظات الفرنسية والبريطانية ، وحيدا لو أمكن استكمال  
ترتيب الأرشيفات المصرية (٣٣) والتركية حتى تقوم بدورها في  
دعم البحث التاريخي (٣٤) \*



---

(٣٣) أطلعت - في سجلات الوثائق المصرية - على مجموعة من الوثائق  
الفرنسية التي تضم كثيرا من مكاتبات نوبار في عصر اسماعيل في ملفات تحت  
عنوان «Egypte/Politique» كما أطلعت على بعض مكاتباته التركية المترجمة  
الى اللغة العربية المودعة في ملفات دفاتر المعية - دفاتر عابدين - ملخصات  
محافظ المعية .

(٣٤) صدر كتاب باللغة الفرنسية في عام ١٨٨٥ يقيم دور نوبار  
وعنوانه كالتالي :

Alexandre Holynski, Nubar pacha devant l'Histoire.

ولم تبيّن طبيعة العلاقة بين نوبار وبين هوليشكى الذى عمد الى  
قاع عن مواقف نوبار السياسية .

20<sup>th</sup> of July 1830. - 30 -

Began on Four the Folia. in  
Plymouth Sound.

I dried up my tears and followed him, but we had not gone ten paces when an elderly Arab, with "caouk", "kank" and yellow slippers came up to my good conductor. Kuche him, swore, made much noise and took me away from him in resolute rescuer took me to a cook's and gave me meat to eat and sturgeon. Led me across the water to Galati up to my house. I found the whole town in the greatest alarm thinking I had been lost. My father immediately laid me on my back and administered to the soles of my feet some dozen heavy strokes with the "masha".

To the best of my recollection it was in the summer of 1816 that my female cousin from Baghdad to Sorabia in a delightful place in the country some few miles from the city, a large painted cart, fitted up with cushions and covered in with an awning was sufficient to hold all the household "the masha" was drawn by two oxen at a slow pace. The women, on foot and on the heels of by pushing them with a sharp pointed stick. We carried bread, vegetables and made dishes on the spot to regale ourselves in the way. My father sat outside smoking his pipe whilst my mother and sister muffled up in veils and loose garments passed through the summer to visit the country and live at the halting place. By and by

My stay with the Abbe did not terminate  
suddenly, for he had learned me how to write  
the European letters. I learnt to count up to  
a thousand, and to read words in an Italian  
dictionary without understanding their meaning.  
About this time used to accompany my father  
to school to a certain little room where  
he sat surrounded with papers consulting much  
and sighing deeply. "did not like" the restraint  
of sitting in one corner with my legs under  
me used to listen to his hurried inarticulate  
Franc phrases - but managed to slip away  
from his presence and lay down near a  
furnace in an open place to see the judges  
pass. One day I ventured to follow a company  
of these pedestrian bands - further than the  
knowledge of the topography of the town  
extended, and in vain I tried to find out my  
father's study or call. I began to be frightened  
and running about the busy narrow streets  
came to a place where a poor man was being  
up by the neck a crowd of people were  
standing round it reading a large sheet  
which was attached to the wretch's breast  
As I never had seen such a sight before, I began  
to cry aloud, shouting loud, and saying "am  
impoverished and beggarish" (ya a my father)  
A ragged young man came up to me, gave me  
a new pair and said he was a particular friend  
of my father and if I came to his house that  
night to eat "beurre" he would take me to  
Bey Ogden on the morning

Then the mill will lose."

March 8<sup>th</sup> A party was found of Messrs  
Lecord, Berry, Johnston & myself to go  
and see Mr. Leonard's dockyard at Greenwich.  
The steamer took us down in 3 hours, and  
up again to the Broomfield in 6.

March 22<sup>nd</sup> Wrote to my Mother in Constantinople,  
in Italian. Sent a paper I had  
written on Steam Navigation to Mr. Kugg  
in Alexandria. Took a part in scheming with  
Dr. Bell & Mr. Johnston, to get the Vicars  
of Egypt elected an Hon. Mem. of the Royal  
African Society. There was a comic at the  
University.

March 29. Went to the President of King's  
College for a copy of the regulations.  
Mr. Parker the Librarian visited me.

March 24<sup>th</sup> Visited Dr. Ross, of 20,000 work  
in Glasgow 160,000 work weekly, 10,000 Calk  
Dues N 2400 per Daily, Drunk, 17000  
18...

- at 71 people, left Glasgow. 79 left his own with me.
- April 16<sup>th</sup>. Examined the works at Port Dundas.  
It is 200 feet higher, in level, than the Clyde.
- April 16<sup>th</sup>. Returned the following works to the University Library:—
- Acoustic Transactions, 12 vols.
  - Manchester Memoirs, 4 vols.
  - Murphy on Weaving
  - Drennon on Weaving
  - Callico printer's assistant
  - Snulder's Attack.
  - Walker's Philosophy
  - Edystone Lighthouse.
  - History of the Northern Lighthouse.
  - Walker Scott's History of Scotland. 2 vols.
  - Dr Ure's Chemical Dictionary.
  - Green's " " " "

Second visit to Glasgow. 1830. . . .

Tuesday 2<sup>nd</sup> of March. Visited Mr Thompson's Spinning Mill. He said "Come as often as you please, but do not remain long any one time, because your presence will divert the attention of my people, particularly of the females from their work." and

These pursuits were not fruitless; and  
 I followed them up with great ardor.  
 Considering them highly necessary in  
 a country like Egypt - where her rising  
 commerce and general agriculture would  
 lead to the establishment of great man-  
 ufactures through the medium of raw silk  
 and the various branches of that  
 series. I was on my way to embark  
 on the first series of my observations  
 commissioned by the Highness - when  
 to my great satisfaction I was ordered  
 to enter an entirely new field of science  
 and knowledge, in which I found  
 ample cause to call in and the result  
 of my studies in London:

See page 90



What were my occupations in 1800.

\*\*\*

I set about seriously to perfect myself in  
the theory of Optics, & Hydrostatics, and  
having plenty of leisure was induced to  
visit me in Foreign literature and the  
various languages. In the evenings I opened  
my Military Books - and I did this that  
more rationally, as the manner of fortification,  
ballistics and other branches of the military  
art afforded subjects analogous in homogeneity  
to my previous studies; the occasion I resorted  
to the books to view the progress of the  
works - chiefly the construction of the fort gates,  
Staircases, Ramps, and ports. After repeated visits  
I got tired of attending a work so uninteresting  
- thought it were idle to me long while  
when I saw rising from a hard war nothing  
and in some one or two gates finished and  
not yet - I did not deem it necessary to  
take time in attending upon the execution  
of others of, amidst the same consideration.  
Consequently after this, took two months of my  
time to the books - I grew more leisurely  
and employed the greater part of my time  
in studying the theory of Hydrostatics, Optics,  
Astronomy, and in perusing works on general  
mathematics

had sought return to King the King  
 of the French and other languages  
 that had the latter house I remained in a  
 College I expressed all other persons  
 thinking the King's part of the King on the  
 King of France I am the more severely  
 satisfied as I apprehended that the King  
 of France's situation in Egypt was just  
 necessary -

Arrival in London from Glasgow  
 March 28<sup>th</sup> 1722.

Immediately proceeded to King's College  
 was very ill at first I was very good  
 condition after some time an advanced but  
 my mind was full of what was to  
 be done and I returned to St. Andrew's  
 a person who had kindly assisted me  
 in my former situation and who was  
 now the superintendent of the  
 said in the said works I was in  
 in the said works I was in  
 these books were selected nearly as  
 with respect to the French and  
 such as the expression of the city of London  
 I have a very good mind for every  
 subject I have much to do for  
 the French in the said books

What I learnt in Glasgow:-

My stay in Glasgow was not so long as I could have wished: I had no difficulty of seeing the rooms, which being in the workmen's own houses were not under the eye of the masters. The silver key soon opened the cottage doors. During the latter period of my sojourn in Glasgow I visited the rooms more frequently than their variety was at first puzzling to me. and it was not until I had procured food on the subject that I could understand them. I was never allowed to make sketches and for fear of the measures having a suspicion of me I dared not take notes - but relied entirely on my memory to write down my observations after I left them. In the meantime I did not neglect the opportunities it seems the progress of specimens - every visit makes the subject more known to me. The inauguration of my liberal and liberal friends aided me in ascertaining the introduction of a gradual reform in the empire - I procured also a list of the names of the persons who were engaged in the cause and I also procured a list of the names of the persons who were engaged in the cause.

fully gratified my curiosity. I went over  
 direct from Bangor to London where I  
 arrived on Friday 20<sup>th</sup> of March 1828.  
 During the three or four days I staid in  
 Liverpool - my kind host showed me the  
 Foundations or Works for various Steam Engines  
 He had several coal mines belonging to himself  
 which he allowed me to descend & examine  
 One day we made an excursion to Chester  
 where we viewed a fine tower on the  
 sea shore - principles of construction as the one  
 situated near - Parahall or Sandwich Bay  
 in London. The day I left Liverpool we left  
 the house early in the morning and (proceeding)  
 to Macclesfield - and on the road, stopped at several  
 places worth seeing. I had the pleasure of  
 viewing Mr. Hensworth's Paper Mills -  
 Mr. Wilson's Copper Mills, and another  
 establishment - situated on a large  
 scale, being both iron and brass works.  
 In these two works Mr. Rhye had some  
 difficulties to get over in consequence of the  
 Malicious of their proprietors - but upon  
 being informed that it was merely an  
 Egyptian Cotton grower. My services etc  
 were used.

fully gratified my curiosity. I had most  
kind fare through to London where I  
arrived on Friday 28<sup>th</sup> of March 1828.  
During the time a few days I staid in  
Haverston. my kind host showed me his  
Foundries & Works for making Steam Engines  
He had several coal mines belonging to himself  
which he allowed me to descend & examine  
he say we made an excursion to Chester  
where we visited a hot spring on the  
same principle of construction as the one  
situated near Passendale or Sandon Lake  
in London. The day I left home we left  
the house early in the morning and passed  
to Ilkleywell - and on the road, stopped at every  
place worth seeing. I had the pleasure of  
visiting Mr. Hammett's Paper Mills -  
Mr. Wilson's Copper Mills, and another  
establishment. situated between a large  
well, being both lead and brass works.  
In these two works Mr. Highley had some  
difficulties to get me in on account of the  
Malicious of their proprietors - but upon  
being informed that I was merely an  
English Cotton grower. they removed all  
obstacles.

I staid in the Manchester for days to prepare  
 for my final departure and to take leave of  
 my friends. I was very anxious to see the  
 great suspension bridge over the Assens chert  
 before I left England; and the present oppor-  
 tunity being the last which would offer  
 I procured permission from London to be  
 allowed the absence of the vicar, and  
 having procured a letter of introduction to  
 Mr. Right the Governor of the Assens near  
 Leeds. I sent all my baggage to London  
 excepting a few books and some letters.  
 Books which I took with me.

On Thursday 18<sup>th</sup> of March 1818. I left the city  
 for good and travelled to Chester - and took a  
 conveyance from that place to the village  
 of Llanrwst, which is distant and situated  
 on the left bank of the Dee. Here I enjoyed  
 the hospitality of Mr. Reedy and remained  
 with him till the 23<sup>rd</sup> when I left him  
 at Holywell in a coach going to Emwy.  
 I remained in Emwy twenty-four hours &  
 saw in full view the great suspension  
 suspension bridge leading to the town. The  
 the 25<sup>th</sup> I arrived in Bangor and ascended  
 the bridge which I did not find time to see  
 I made several visits to the place before

February 20<sup>th</sup> 1828. Visited Paisley

— 23<sup>rd</sup> — do

March 1<sup>st</sup> Went to Paisley and  
remained there till Sunday

March 3<sup>rd</sup> Returned from Paisley in  
the afternoon - saw an Engine for Thomas  
Wood close to Mr. Thomson's Mills - and  
visited again Mr. Wood's Establishment.

March 4<sup>th</sup> 1828 Returned to Paisley -

5<sup>th</sup> do do

6<sup>th</sup> do do  
Sills and returned to  
Glasgow very soon. Took leave of my friends  
previous to my departure.

March 14<sup>th</sup> Took leave of my friends and  
prepared to leave Glasgow.

Monday the 8<sup>th</sup> of March 1828. Left Glasgow  
on a Steam Boat at 12 o'clock in the day -  
and arrived in Liverpool at 4 o'clock in the  
evening of the 10<sup>th</sup>.

I remained in Liverpool two days &  
saw the Public Dock of that port & saw  
the various works of the dock & saw  
the 15<sup>th</sup> of the same dock & saw  
the iron boiler that was burning

7 13<sup>th</sup> 1828. Attended Mrs Lane's & the  
ministration of some Charity School boys  
&c.

7 14<sup>th</sup> Received my letter of introduction  
Mr Howditch - and saw his Farming  
mills.

17<sup>th</sup> Wrote to Mr Gifford - Mr Neaton,  
& to Messrs Howditch & Co.

Wrote to Mr Nicholson - and went to  
Ly to view Francis Mill.

Went to Paisley to see Francis Mill

Accompanied Dr Wilson to the Hospital,  
Page and Munro. Went to Paisley -

Wrote to Mr Nicholson. Visited some  
Francis Mill in a village near Glasgow. In  
company with Mr Howson.

Left Glasgow for Edinburgh -

Returned to Glasgow early in the morning  
and Mr James Howditch - afterwards  
examined him to the country to view  
mills for Farming Cotton.

Wrote to Mr Swan's Mills again.

Visited Mr Buchanan's Blacking  
making Works, and also Mr Black's  
Long Blacking Works.



Mr. J. Briggs' letter of introduction - and that  
excellent man showed me his shells  
for other specimens.

February 2<sup>nd</sup> - Went to Paisley, seven miles  
from Glasgow to see some Wren's Eggs.  
Was accompanied by Mr. Laurie, senior.  
Returned to Glasgow in the evening.

February 3<sup>rd</sup> Wrote to Mr. Nicholson

February 4<sup>th</sup> Wrote to Dr. Burns. Saw  
Mr. Thomson's shells again. Went to  
Paisley.

Feb. 5<sup>th</sup> Wrote to Mr. Graham.

Feb. 7<sup>th</sup> Accompanied Mr. Laurie to a  
Gla. Wren & Plover's near Glasgow

Feb. 8<sup>th</sup> Wrote to Mr. William Gannett.

Mr. Laurie showed me the Wren's Eggs for  
making common. Saw bottles belonging  
to Mr. Dixon and situated near the  
Barrmillan Brig.

Feb. 9<sup>th</sup> Went to Mr. Dixon's again. Saw  
the Wren's Eggs drawn out

Feb. 12<sup>th</sup> Called upon Mr. Thomson. He took  
me over his shells again and introduced  
me to Mr. John Davidson whose "Wren's  
& Plover's" I visited.

have a good foundry for iron, and granite  
beds, the furnaces being heated by blowing  
vertical hydraulic machines driven by  
a engine. They plane the beams  
out by machinery, and their apparatus  
during beds is the most complete of mechanism,  
like power looms and some machinery  
in the Cotton Manufacture.

Wood's Machinery situated near Mr. Roberts'  
a extensive establishment, for making  
is Portland, water pipes, large Fort's wheels  
cones. He worked in his pattern shop no  
less than 12,000 different wooden patterns,  
strong blocks. The building was very airy  
light, with a well built roof, unobscured  
by a windmill in every direction. An  
iron beam ran over the gate which gave  
great ease to the iron in casting and  
and out many...

Mr. Johnson's Mill's Ford. There were on  
a immense scale construction, being several large  
ranges of brick buildings, large ones

which were in a state of decay  
and were now brought to great perfection  
The water was in a tank and  
... the water was in a place which led to the  
... and was now in a place which led to the  
... and was now in a place which led to the  
... and was now in a place which led to the

The Portable Gas Works, situated near Manhattan were large buildings where gas from coal and oil was generated, purified and instead of being sent over the town in pipes, as usual, were compressed into iron vessels of various sizes. The smallest vessels would contain gas sufficient for two days consumption. The engine for pumping and compressing the gas - was a mangle piece & Newby's genius and a work which reflected great honor on Mr. Brownell's establishment. The light afforded from the combustion was intense, equable and cheap. I found it my advantage to use it instead of candles, when we had considering their expense, are daily used injurious to the sight, besides the vapors which are evolved during the decomposition. The injurious is the health, whereas in case of gas the only produce is a little hydrogen which does no body injury. This gas itself is too small - so is the smell of a candle - both of which, if we were better used to allow them to escape and reach the nose, would be insignificant.

Mr. Robert's Thorpe's Factory is situated in Westly Street, and is of the kind the writer has had the most on the continent. The apparatus are convenient and there can afford to send me one and cheap worth.

The next day we were with Genl. ...  
 these minutes was very delightful and not  
 unproductive. Dr. Hays, Dr. Robin M. Sillier,  
 Dr. William Ford, Dr. ... and Dr. ...  
 were present to whom I spoke with great  
 pleasure & ... I was ...  
 on these occasions. I had the pleasure  
 of ... going to see the ...  
 ... on the ...  
 ... Dr. ... was ...  
 ... President. ...  
 ... with one  
 ... and that - to be able to  
 ... of my ...  
 ... I could have wished to have  
 ... at the hands  
 of the ... who were all ...  
 ... especially of me -  
 since then soon came to know that  
 ... was  
 ... to give as much  
 information as possible on the ...  
 ... with the view of  
 ... into Egypt then ...  
 ... amongst them were  
 ... to satisfy my curiosity -  
 ... as I imagined, not to present  
 me with the slightest opportunity of  
 ... & ...

During the winter months I lived with Mr A. I did every thing in my power to assist & to cheer him but I was never satisfied with myself. I found my course for improvement in events - first that I should draw forward much of my own subject I should have found much time left and had it in my hand I should use my own satisfaction and to great my own convenience, & afterwards to employ the same time in the study of the French and Italian languages for which I procured masters to attend me used to assist me in. I attended to the great Mr Wether's lectures on Chemistry & my Master's lectures on Mechanics & natural Philosophy delivered in the Archbishop's school, to Mr Hall's instructions in Zoology and to Dr Holland's lectures on Mineralogy. I also attended to various good improvements made in the Math, Sci and Languages.

Mr Nicholson had a select library of various books on the Arts & Sciences, which he kindly permitted me to take to my house for my use, and my friend Mr William Garnett lent me some volumes of Pless Encyclopedic. Thus, by making all I could on the matter. Manufacturing and seeing as much as the printers' generosity & liberality would allow, I spent my time in Manchester in a quiet study.

and more & 1/2 higher in their native language began to read and translate. French. I commenced the Greek Greek Grammar.

In the fourth year - Flaming made considerable progress in Latin prose - the reading of that language was attended translation from the Greek was commenced and Plane Geometry taken on hand. French, Geography & Dr. Keeler's Greek combined.

In the fifth year - the course of study was the same as the former one, but went into the higher branches. Algebra was begun, as also Rhetoric.

In the sixth & seventh classes the most difficult of the Greek Latin authors were put into the hands of the students. To study on the Transcendental Greek continued.

After going through these seven classes which took up seven long years - the student has the satisfaction of having learnt a little Latin & Greek, and nothing else, especially well to be ready to begin.

The rudiments of Natural Philosophy, Chemistry and Geology were taught as a distinct separate from the rest and under a connected course. These were not only taught in one year and the pupil was obliged to learn another year only heard a recitation of the sciences if he did not attend any thing in these branches or under learning were resumed.

The system in their education was, perhaps  
 more adapted to prepare young men to enter  
 the church than the busy world. The circum-  
 stances in their early and conditions are igno-  
 rant of the world. They teach their pupils  
 so that they may learn various knowledge, and  
 thus look upon as a system taught to European  
 youths who are already provided with  
 fortunes, but every unfortunates to whom it  
 was to make their way through the world.  
 The study of the dead languages, bearing  
 the studies of religion, was the immediate  
 object of their system of education. The  
 grand end to which they were to prepare the  
 youth was to teach them to read to  
 recitation and to teach recitation: is that  
 a lesson bearing various instructions was  
 not by any means and which inculcated  
 that same end, prepared to enter into  
 the particular studies necessary for them.  
 The pupils were divided into three classes,  
 in the first class the pupils were  
 entered, then they were their alphabet  
 learned their letters were taught names,  
 and commenced the Latin Grammar.  
 In the second class commenced the Latin  
 Grammar began to combine Latin into  
 English & commenced the Latin Grammar.  
 In the third class entered a course of geography  
 and the Latin language continued.

We staid a day at Preston and then took a  
port chaise to arrive at Manchester, where we  
staid a day before the coronation of the King,  
George II. In such an occasion the priests  
visited the neighbouring country people with  
bread and pilgrim puddings. Mr. St. John was  
given them to drink. "St. Gregory's health" an  
after recesses, came me to the care of Mr. St. John.  
Mr. St. John took care of me. It was very kind  
in him to take me up to this college the whole  
way from London.

I must not forget to mention that, whilst at  
Preston, we visited a Mr. Stoughton, who had  
travell'd in Egypt during Mr. St. John's embassy  
in that country and had received many attentions  
from him. In return he begged he might show  
me the same attention during our stay.

Stoughton college is a large building  
with extensive lands attached to it. It belongs  
to the Society, who employ themselves in  
the care of the moral and human education  
of the Catholic youth of great Britain. It is  
so respectable, that the sons of the greatest  
families of Spanish descent are sent to it  
to receive their education. The Catholic nobility  
of England also send their sons there. In our time  
I think there were the Marquis, Marquis, Marquis  
Efford, Loughborough and others.



... it is now Bengal has me in  
... ..

In Hindustan ... Mr. Briggs took  
me away from ... where I had been  
for nearly three years, to remove me to  
a higher school and one professing the  
in Middle ... the ... of my family  
... ..  
... ..  
... ..  
... ..  
... ..

In my journey to it, we stopped a few  
days at Birmingham a large town celeb-  
rated for its extensive iron manufactures  
and military arms were introduced to  
... ..  
to Messrs. Walker and Gales of the ...  
Works, ... ..  
employed in furnishing arms and ...  
to ... ..  
... ..  
of great depth. From this town we ...  
to Manchester where Mr. Briggs introduced  
me to Mr. William Gurnell and to several  
other gentlemen. He showed me the interior  
of a Cotton Mill, Brandy and other ...  
... ..

... and ... from all  
... and ... of the  
... and sailed in a fast ...  
... to Dover. It was night when we landed  
... was new to me: The houses, streets  
... and the ... of the ...  
... and ... one ...  
... these were conflagrations in the town the  
... and ... rattling through the streets  
I tried to be military carriages - in vain I looked  
... for the ... but hat-hats - nothing  
but black hats appeared. I was puzzled as never  
before I saw. It was a long time before I could  
understand the bells in the room - and when  
... was laid out I little expected there were  
things to eat under glittering silver covers,  
when the waiter smartly uncovered the dishes  
meats, vegetables and fish appeared to come as  
if by magic. It such an early age I could  
make no reflections on what I saw - but  
I thought there was no water in England -  
for I saw nothing but tea, coffee, beer,  
ale, porter, cyder, wines, brandy, gin, rum,  
whisky and every sort of made liquors - but  
water these "chesters" did not seem to wish.  
We did not stay long at Dover: - one night I was  
sent into a coach drawn by four horses, which  
I at first sight took for a "trottoir", it never  
stopped but travelled with great rapidity (very  
unlike our "coaches") till we arrived in London.

Smyrna, we was a gay place. I lived  
in a place close to the sea side where I  
read in even all the afternoon in the harbor  
at night. There took place exhibitions of  
fine works from boats and at sea; this was  
amusing to me never having seen any  
before.

From Constantinople in 1818

After a stay of six weeks in Constantinople  
in Greece I was engaged by purchase  
to England in a small English Brig, con-  
sisting of Captain Phipps and seven with  
cotton, tanned and large vessels. We were  
frequently detained in the Mediterranean.  
We stopped at Malta to get on water  
and fresh land also at Gibraltar.  
In the Bay of Biscay experienced very  
rough weather. I do not recollect where  
we anchored and for some quarters  
this lasted about three weeks in a  
month; and my confinement greatly  
decried me particularly as we saw  
land so close we were distinguished  
the inhabitants walking about the  
field, and the cattle grazing. About  
this time I was surprised with a painful  
inflammation of the summit of my right leg  
which was due to my riding upon my  
immoderate time in the scuppernons and in the

Ships, trees and menards appeared to pass  
under. Spinala looked toward me and I sat on  
the edge of the cabin looking along the deck  
and shading tears, which when Franco  
perceived it, said I had no courage which  
wotted over and made me think it was  
the dust on the deck was blown into my  
eyes and made them water.

I do not distinctly remember what I saw  
during the voyage. He stopped at Cape Baba  
where I saw some women with some women  
and my servant to buy fresh food, here I  
observed tall columns the most magnificent  
temple of antiquity. The water of the sea here  
was so clear that we could clearly distinguish  
the rocks and shells laying on the bottom.  
We never lost sight of land the whole way  
from Spinala to Smyrna.

Arrived in Smyrna Franco got engaged  
in the Frank quarters close to the sea side  
The man was a sort of linguist and had  
acquired the confidence of us, to whom he had  
been to take care of us till our safe arrival  
in London. But he turned out to be an  
impudent vagabond - a thief and a drunkard  
in London he got into debt and Mr. Buggs  
tried in vain to get him to get home  
off and gave an account of himself that  
I have not time to give you.

I had, as usual on such occasions, in a good  
degree given me I was young and thoughtless.  
I knew not the value of parents, and my heart  
being full of amusement at sea and of going  
to a country where all the inhabitants were  
not men and Englishmen - I left them  
tristly, - but sympathetically to remain a home  
for the first time in my life: which was  
standing at the door for me. Before I left  
the house, an old Dominican lady, who a  
little time ago had lost a certain person  
in the neighbourhood would be set on fire  
and was in consequence looked upon as a  
heathen, put her hands upon my head and  
said I should be "most fortunate" which  
gave me but but consolation. My good man  
and younger brother wept much  
because I was going away, but my affectionate  
mother, with several grants, beckoned me  
to her and kissed me on the forehead.  
She pressed my head to her bare bosom  
and would have cherished me long  
but the time came when I was to  
part - and since that day I have  
never seen her and it is how nearly ten  
years I have had no news from her.  
I was lifted on horseback. I was led to  
the port where I embarked in the Casco  
I talked at my father's long in the  
at night I was in the crowd

who dared not dislodge me from a heap of  
oyster shells in a corner, a collector of  
various fishes gave me a swim, brushing  
with his two little sticks he nudged life  
his presence with - and this humbled me so  
that I never put my foot into the ocean  
again for fear of the "bodzee". Thus a  
"vagratory" dog appeared an object in my behalf.  
which could be done neither by personal admo-  
nition nor severe and restorative chastisement.

Go to Longman: (Ipswich Town)

My article in "Littell's Journal" about 1817 or the  
beginning of '28 made Mr. Longman's mind  
to send me to England. The first indica-  
tion of his resolution was to buy me  
a complete suit of French clothes - a small  
box of linen with my "indish" cushions  
and three or four "American" books - was  
packed and sent off to an "Ipswich" carrier  
which was just leaving Ipswich for  
London - and I strolled about  
the next evening in the house in a pair  
of new shoes looking fierce and bearing  
round sharply on my heels to show how  
I could set the "land". But when, in the  
presence of the whole family assembled, I  
vigorously thrust my hand into my tight  
"breeches" to adjust my shirt, the "joke"  
was carried too far - and my weather coat  
and my slipper and my white waistcoat  
"went" - and I was left in the street  
in my "jumps" who caught heartily at my expense  
of "jumps".

moment, embracing me to sit in one position before him and to listen to his reading, although I declare I did not understand one word of what I heard - nor what is more remarkable my father himself, did not know a word of the English language, and seemed to derive pleasure from hearing his own voice in that peculiar tongue. He always shut up the book by observing the English were shasters very abbeled led and would send me amongst them to be a ben. sark adam when ordering me to light his pipe he used to sit gazing at me whilst I hummed a little wooden stool with feet, most six fingers in the Arab fashion. I had become a very good boy, often wished to go to England and went morning and night to Bede for his blessing. I used to watch for hours a picture of the Virgin Mary to see whether it would move - and always took a little Italian pocket dictionary to bed with me. notwithstanding my zeal said party I was as quarrelsome as ever - and took every opportunity to fight with the little boys of our neighbourhood - and extraordinary enough - in such rencontres I pronounced aloud that I was an Englishman - was going to Frangistan. I had great strength and toughness for a little boy and generally obtained the mastery in fighting. I was partially cured of my conceit one day when quarrelling on this account with many little

... "shelton" and a "piper" "shel"  
 on my feet. The hair which was yellow  
 and long was combed behind flat to my  
 neck and parted before and turned over  
 my turban. I was allowed to wear the  
 dress only on Sundays and whenever my  
 father took me out walking with him.  
 On these occasions I always walked in his  
 shade and sometimes under cover of the  
 hem of his "caplan" or "bush".

I was now no longer known by the name  
 of "Hewop", as I had in the family; but  
 was always called "Kaulhook" together with  
 Little Englishman. ... when I came  
 to a large court palace with many light  
 and ... halls I do not remember  
 who the inmates were. but after we  
 had drunk tea (the preparator for the  
 concert of ... was a magnificent  
 new to me). Mydich Aga with great  
 ceremony took me by the hand through  
 a long gallery to a room where there  
 were ... and ... in great plenty:  
 when he said "glam" (the i.e. English  
 "glam" and Italian books open and read  
 "glam" and you shall be a great man"

At this he shut the door upon me and  
 left me by myself - with books I was  
 puzzled to open much left to understand  
 ... instructions gave him two books  
 ... which he'd the other in English - the  
 latter was the one he was afterwards found  
 to contain one stanza to me in his honor



The solemn air of the masters induced respect, and the number of scholars.

discipline was attended to their studies, meals and recreations in regular hours caused me to receive books and attention. I had books given me and in paper to write on. These things induced me to become studious. In part my teachers were pleased with my progress. Particularly in drawing ships. But when I drew a picture representing souls tormented in purgatory - with angels pulling up some and letting down others, my character as a clever and pious boy was soon established. Whether my mother thought that after such a specimen of genius my education was complete or that the time I was to be with these priests had closed. I left that place and returned to my mother who received me very affectionately. My conduct was now greatly altered; I looked to clean the house and to draw water. I no longer ran about - but sat with the 'old', or 'old' man, or woman who lived with the family; the greater part of the day - brought down coffee and held the basin and poured out the water for him to wash his hands and head with. I was fond of reading out aloud although I understood not. I possessed. And over my books every night and prayed with my mother to our nation's saints. I was I a favourite of my parents.

My father returned from <sup>his</sup> (Egypt),

It was on his return of a rainy day that my  
 kind mother had been recommended in account  
 on the basis of a much relation who had prof-  
 ited of on the plague in a whole coun-  
 try. He then showed from our windows as  
 he passed our street, wished my beloved father,  
 had returned from that far country first  
 after a month after there was a sound of  
 our street door and entrance to open it.  
 I went to my retrenchment 'he had come.  
 He turned into my mother's room got on the  
 sofa and bid me to undo the things which  
 comprised the things to be brought to his  
 ankles water to my feet and washed  
 handkerchiefs, paper, letters, knives, tools,  
 money and other in value. He then changed  
 his blue turban for the Armenian cap and  
 and whilst my mother hastened to prepare  
 him coffee, sat on the divan and began  
 to play on the tambour. He commanded me  
 to rise and have him tobacco and to fetch  
 fresh water for him to drink. I hastened  
 to my errand with delight. I took the  
 precaution of carrying a small black handkerchief  
 and a soap and under my simple dress to  
 touch the clothes of any person in the street.  
 My parents bought me a new suit of clothes  
 in recompense for my tale. My father in my  
 studies was very proud of my study that time.

we came to some plain-trees - from which I cut  
off some branches with six wood-smiths & brought  
to adorn the east wall. Before we arrived at  
the city we crossed a great heath - whence  
we had a view of the environs of Stambul.  
We lived in the house of a Greek who showed  
us his knives and pistols, to show he was well  
armed against robbers and banditti.  
Few days elapsed before I found out where  
the vineyards were, where the goats were  
milked and where the butchers kept their  
shops. My father to keep me out of mischief,  
having been already some months in France  
quite idle, engaged a Frenchman to give  
me lessons in French. His tight pantaloons  
and creaking boots caused me to dislike  
him. I learnt so much French from him  
as Fluxions or Spherical Trigonometry - and  
when my father was about to set off for  
Mez (Egypt) and the family had to remove  
to Beyrout again - I left him with great  
joy.

Previous to leaving Constantinople, I was  
placed in a superior school of Academy conducted  
I think by some Armenian priests. This school  
was situated near the ships in the harbour  
seemed a palace to me. Painted walls, pictures  
fountains, ornamented & lofty ceilings, long  
galleries and large windows with magnificent  
panes of glass to them were new to me

What I was assigned to the care of a Papist  
who had great many scholars from whom  
I learned much civility, instruction, &  
in the course of some time or ten months  
this man taught me how to repeat the  
Lord's prayer in Roman by art and to pronounce  
the Greek alphabet. Such proficiency in  
the Greek language was deemed highly  
creditable to my natural talents and was  
forthwith dispatched to an Italian priest's.  
This Abbe was an old man who had lost  
the use of his legs & always lay in bed;  
he had the rosary and breviary continually  
in his hands. I soon found his conversation  
and piety reputable for my spirit of  
idleness and seldom attended to his  
instructions. The distance of his school  
from my house offered too many objects  
in the way to attract my curiosity and  
to detain me; besides, as I now carried  
out my dinner every day in a basket  
I was always tempted to open it soon  
after I turned a corner out of view of my  
house, devouring the most delicate  
morsels and throwing away the rest to  
beggars and dogs - the former begged me  
and the latter wagged their tails. I came  
thus to distinguish many of these beggars,  
some of whom I favoured more than others,  
and these men, taking advantage of my  
simplicity, always lay in wait for me.

## In Constantinople.

I was an ungovernable little boy, seldom attended the Papagi who kept a little school in the neighbourhood of my father's house instead of studying I was fond of lighting and cutting figures out of bits of paper. I seldom stayed in the house - but was continually in a "verana" close by drawing kittens sitting low to heaps of straw and pulling at dogs. The limit of my progressions was an Akal's about fifty yards from my door, where I used to admire the fresh, soap and sundry groceries; opposite this shop was a tavern frequented by Paniparies and Gallingsas whom I used to admire on account of their glittering costumes and bright arms.

My father, who did all in his power to give me a good education, put me to no less than five different schools. My first master was an Armenian of irritable temper who flogged his pupils regularly once a week, he died of frequent tarting and improving the good man succeeded in teaching me how to read and write the Armenian language.

الملاحق (\*)

## BRITISH MUSEUM

DEPARTMENT MANUSCRIPT

CATALOGUE 37448


ORDER PSS/403

AUTHOR \_\_\_\_\_

TITLE HÉKÉKYAN PAPERS  
(SELECTED PARTS)

PLACE & DATE OF ORIGIN 1807-1841

INCHES 

 CENTIMETRES

**BRITISH MUSEUM PHOTOGRAPHIC SERVICE, LONDON**

---

(\*) من أوراق حككيان بالمتحف البريطاني

## فهرس

### الصفحة

٥	تقديم
	الموضوع الأول :
٧	جوانب من علاقات مصر الخارجية فى عهد عباس الأول
	الموضوع الثانى :
٣١	انهيار نظام الاحتكار فى مصر بعد عام ١٨٤١
	الموضوع الثالث :
٧١	أوراق حككيان
	الموضوع الرابع :
٨٩	مذكرات نوبار باشا
١٤٥	الملاحق





## صدر فى هذه السلسلة

- ١ - الأصول التاريخية لمسألة طابا - دراسة وثائقية  
د . يونان لبيب رزق
- ٢ - مجمع اللغة العربية - دراسة تاريخية  
د . عبد المعزم الدسوقي الجميلى .
- ٣ - التيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين  
- دراسة فى فكر الشيخ محمد عبده .  
د . زكريا سليمان بيومى
- ٤ - الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية فى العصر الحديث  
د . محمد كمال يحيى
- ٥ - رؤية فى تحديث الفكر المصرى - « الشيخ حسن المرصفى  
وكتابه رسالة الكلم الثمان مع النص الكامل للكتاب »  
د . أحمد زكريا الشلق .
- ٦ - صياغة التعليم المصرى الحديث - « دور القوى السياسية  
والاجتماعية والفكرية ١٩٢٣ - ١٩٥٢ »  
د . سليمان نسيم
- ٧ - دور مصر فى أفريقيا فى العصر الحديث  
د . شوقى عطا الله الجمل .

- ٨ - التطورات الاجتماعية فى الريف المصرى قبل ثورة ١٩١٩  
د . فاطمة علم الدين عبد الواحد .
- ٩ - المرأة المصرية والتغيرات الاجتماعية ١٩١٩ - ١٩٤٥  
د . لطيفة محمد سالم .
- ١٠ - الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادى بين مصر والسودان  
« دراسة فى العلاقات الاقتصادية المصرية السودانية  
١٨٢١ - ١٨٤٨ »  
د . نسيم مقار
- ١١ - حول الفكرة العربية فى مصر - « دراسة فى تاريخ الفكر  
السياسى المصرى المعاصر .  
د . فؤاد المرسى خاطر .
- ١٢ - صحافة الحزب الوطنى ١٩٠٧ - ١٩١٢ - « دراسة  
تاريخية » .  
د . يواقيم رزق مرقص .
- ١٣ - الجامعة الأهلية بين النشأة والتطور .  
د . سامية حسن إبراهيم .
- ١٤ - العلاقات المصرية السودانية ١٩١٩ - ١٩٢٤ .  
د . أحمد دياب .
- ١٥ - حركة الترجمة فى مصر فى القرن العشرين  
أحمد عصام الدين
- ١٦ - مصر وحركات التحرر الوطنى فى شمال أفريقيا .  
د . عبد الله عبد الرازق إبراهيم .

- ١٧ - رؤية فى تحديث الفكر المصرى - « دراسة فى فكر أحمد فتحى زغلول »  
 د . أحمد زكريا السلق
- ١٨ - صناعة تاريخ مصر الحديث - « دراسة فى فكر عبد الرحمن الراقى »  
 د . حمادة محمود اسماعيل
- ١٩ - الصحافة والحركة الوطنية المصرية ١٩٤٥ - ١٩٥٢ - من ملفات الخارجية البريطانية  
 د . لطيفة محمد سالم
- ٢٠ - الدبلوماسية المصرية وقضية فلسطين ١٩٤٧ ، ١٩٤٨  
 د . عادل حسين غنيم
- ٢١ - الجمعية الوطنية المصرية سنة ١٨٨٣ - « جمعية الانتقام »  
 د . زين العابدين شمس الدين نجم
- ٢٢ - قضية الفلاح فى البرلمان المصرى ١٩٢٤ - ١٩٣٦  
 د . زكريا سليمان بيومى
- ٢٣ - فصول فى تاريخ تحديث المدن فى مصر ١٨٢٠ - ١٩١٤  
 د . حلمى أحمد شلبى
- ٢٤ - الأزهر ودوره السياسى والحضارى فى افريقيا  
 د . شوقى الجمل
- ٢٥ - تطور النقل والمواصلات الداخلية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ - ١٩١٤  
 د . فاطمة علم الدين

٢٦ - جمعية مصر الفتاة ١٨٧٩ دراسة وثيقية

د . على شلش .

٢٧ - السودان فى البرلمان المصرى - ١٩٢٤ - ١٩٣٦

د . يواقيم رزق مرقص .

وبين يديك :

عصر حككيان

د . ا / احمد عبد الرحيم مصطفى .

والعدد القسام :

المجالس النيابية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى

د . سعیده محمد حسنى .



رقم الابداع ٢٢٩٩ / ١٩٩٠

---

الترقيم الدولي ٧ - ٢٣٩٢ - ٠١ - ٩٧٧

---

الهيئة المصرية العامة للكتاب



يستهدف هذا الكتاب القراء المزيد من الأضواء على تاريخ مصر الحديث فيما بين عامي ١٨٤١ و ١٨٦٣ ، وهي الفترة التي تشمل أواخر عصر محمد علي وعهد كل من عباس الأول وسعيد .

وقد شهدت هذه الفترة التي لم تحظ بالدراسة الكافية انتقال مصر من حيز الفتوة والاستقلال الواقعي إلى التبعية لأوروبا وما استتبعته من تحولات وهزات عاصفة .